

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا - الآداب والنقد



أبو القاسم الشابي
دراسة في حياته وأدبه

٢٠٢٢٨٦

بحث مقدم

من

الطالب: فخرى أحمد حسن طمليه

١٩٧٤ - ١٩٧٣

الفصل الثالث : طابع شخصيته

- (١) التشائم ٤٠
- (٢) فلسفة الموت عند أبي القاسم الشابي ٦٢
- (٣) موقف الشابي من شعبه ٧٤
- (٤) موقفه من الدين ٨٨
- (٥) موقفه من القديم ودعوته الى التجديد ٩٥
- (٦) آثار الشابي الادبية ١٠٧

الباب الثاني : شعره وشاعريته

الفصل الاول :

- ١ - تجربته الشعرية
 - أ (مفهومه للشعر ١١٣
 - ب (تأثيره بالمدارس الادبية المختلفة
 - (١) تأثيره بالادب العربي القديم ١١٩
 - (٢) تأثيره بالادب الاجنبية ومدرسة الديوان ١١٩
 - (٣) تأثيره بجماعة "أوبللو" ١٢٠
 - (٤) تأثيره بشعراء المهجر ١٢٣
- ٢ - منزلته الشعرية :
 - أبو القاسم شاعر ذو سمعة عالمية ١٢٨

الفصل الثاني : اهم اغراض شعره وخصائصه الفنية

- (١) الرثاء ١٣٠
- (٢) شعر الطبيعة ١٣٣

صفحه

١٤٠

١٥٠

١٥٢

(٣) القزل

الخاتمه

المراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمته

ان كتابة بحث في موضوع ما في الادب العربي ، تقتضي وقوف الباحث طويلا ، متأملا مفكرا ، فهذا الادب عريق ، ممر في أطوار متعددة ، وفي مراحل تاريخية تمتد الى اعماق التاريخ بدءا بالعصر الجاهلي وامتدادا في العصور التي لحقته حتى يومنا هذا . ولما كان القديم والوسيط قد حازا على كثير من الابحاث نوهت بها ، وبنيت عناصر القوة والاشراق فيها ، وبعض ما اعتراها في بعض عصورها من تخلف وجمود ، أحببت ان يكون بحثي في الادب العربي المعاصر ، الذي لا يزال يخط طريقه نحو المسموق والارتفاع ، ليعيد لهذا الادب غناه مستفيد من منابع تاريخه الثرة ، ومما وصلت اليه حضارة الانسان المعاصر في شتى مجالات الحياة ، خاصة الادبية منها ، ولأن الأمة العربية تواجه التحدي ، فلا بد للأدب ان ينهض بدوره في توعية الناشئة من أبناء الأمة ، يصور لها الواقع ، بل وينفذ فيه ، ليكشف عن مكامن الهداء ، ينير العقل ، ويفذ العاطفة ، ويهdy الى التدريب ، ووقفت هنا أجول ببصرى بين أدباء العصر وشعرائهم ، ممن عني بقضية الأمة ، وقضية الحياة ، فوجدت الكثير واخترت من بينهم - أبا القاسم الشابي - ليكون موضوع دراستي ، لما لمسته عند الشاعر من توقد العاطفة ، ورغف العن ، ومن انتمائه بقضية شعبه الوطنية تجلّت في العديد من قصائده ، دعا فيها قومه للاخذ بأسباب القوة ، وأن الحياة لن تنقاد لهم ، الا اذا تحررت فيهم الارادة ، وشحذوا العزم ، ثم تلك القصائد التي جاهر فيها

المستعمرين عداً ، وأنذرهم بالويل والثبور من صدوة الشعب ،
هذا الجانب من جوانب شعر أبي القاسم هو الذي يعجبني .
بل قد يكون هو المحافز الذي دفعني الى دراسته . ولا يعني
هذا أن ابا القاسم قد تجاوز السلبية في كل قصائد ، فهناك
قصايا وقفت عندها وناقشتها ، ولعل أهمها سيات الغضب التي
لمع بها الشاعر شعبه ، بعد أن أيقن انهم غير مضيغي
السمع له ، ثم ناقشت بعض النواحي السلبية في رومانسيته
التي تجلّت في عزله في الغاب وإثارة الحياة فيه ، وعن
الحياة في قلب المجتمع الذي منه نبت وفيه نما .

وحتى أقف على المؤثرات العامة التي طبعت شعر أبي
القاسم ، كان لا بد من الوقوف ولو عينية عند بيئته العامة ، ^{ص ١٢}
وما اعتراها من اسباب الضعف ، وما جرّه عليها المستعمر من
ظلم . ثم وقفت عند بيئته الخاصة ، ومراحل حياته ، وما أصابه
فيها من أحداث أثرت في سير حياته ، ونسجت انماط تفكيره ،
فعرضت فلسفته في الصوت ، وموقفه من شعبه ، ودعوته الى التجديد ،
وغيرها من انماط السلوك التي عاشها .

ولما كان الشعر هو الوعاء الذي ضمّنه كل هذا عرضت
لنماذج من شعره وبينت تجربته الشعرية وروايتها .
واني لأرجو أن أكون قد وفقت ، وأتمنى أن أكون في نهجي
قد اتسمت بقسط من الموضوعية ، وبعد عن الانحياز للشاعر أو التعامل عليه .

فخرى أحمد حسن طمليه

١٩٧٤ / ٤ / ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لہ

الباب الاول

- ٠١ بيئة ابي القاسم العامة
- ٠٢ بيئة ابي القاسم الخاصة
- ٠٣ طابع شخصيته

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

بيئة ابي القاسم العاصمة

تونس تحت وطأة الاحتلال الفرنسي

أ) قصة الاحتلال :

قبل ان يحتل الاستعمار الفرنسي تونس ، كانت خاضعة للحكم العثماني ، يقوم بادارتها حكامها الذين عرفوا باسم (البايات) . وكان هؤلاء هم الحكام الحقيقيون للبلاد ، ولم يكن للادولة العثمانية الا السلطة الاسمية .

قوى حكام تونس علاقاتهم بالدول الأوروبية ، وكانت تربطهم بمصالحات تجارية في نفس الوقت الذي كانت ترتبط فيه تونس بالدولة العثمانية بعلاقات ود وصداقة . فكانت تونس تقدم للدولة المساعدة في حروبها ضد اعدائها .

وحين استشرى الاستعمار الغربي ، وسيطرت فرنسا على الجزائر اخذت تحاول بكل جد احتلال تونس ، وكان ينافسها في ذلك ايطاليا وانجلترا .

حاول (البايات) ان ينمو بلادهم ، ولكنهم تورطوا في علاقاتهم المالية بالاجانب ، واستعانوا بالشركات الفرنسية ، والايطالية والانجليزية في مشروعاتهم ، وبهذا مهدوا الطريق امام المستعمرين ليحققوا اطماعهم في البلاد .

والاوضاع في تونس في هذه الفترة كانت شبيهة بتلك التي
سادت مصر في عهد الحديوي اسماعيل ، وكانت النتائج التي ترتب
عليها متماثلة في البلدين ، فقد اهتم رجال المحكم في تونس
بالجيش والاسطول ، وفي سنة ١٨٤٠ ، أنشأ (احمد باي) مدرسة
لاعداد ضباط الجيش ، واستخدم العديد من الضباط الاجانب في
سبيل ذلك ، وهذا يذكرنا باعمال محمد علي في مصر .

بالاضافة الى هذا التيار الخسري الذي حاول (البايات)
جلبه الى تونس كان جامع الزيتونة ، يقم بدوره الثقافي العربي
الاسلامي ، وهذا يذكر بالدور الذي لعبه ويلعبه (الازهر الشريف)
في مصر في الحفاظ على التراث ، والتمسك باركان الدين الحنيف .

كما حاول (البايات) تدسين نظام الادارة المحلية والقيام
بالمشاريع الاعمارية ، الا ان ذلك وسبب سوء الاداره ، وكثرة الانفاق
على القصر الحاكم ادى الى تورط تونس ، في ديون لم تستطع
لها سدادا ، وادى ذلك الى الاشراف المالي على مقدرات تونس
عن طريق (لجنة دولية) ، وبذلك اصبح الطريق مهبطا لاحتلال
تونس .

كانت الدول الطامعة في احتلالها ثلاثا : فرنسا ، انجلترا ،
وايطاليا ، حاولت كل منها جاهدة الحصول على امتيازات تتيح لها
التحكم بتونس واحتلالها ، فقد منح الباي (محمد الصادق) الشركات
الفرنسية امتيازات السبرق والمياه والخطوط الحديدية كما ترك
للفرنسيين حرية فتح المدارس ، ومنح رعايا فرنسا امتيازات تجارية .

أما انجلترا فكان يمثلها في تونس خلال المستعينات من القرن التاسع عشر ، ممثل دبلوماسي ، استطاع ببراعته أن يجعل لدولته مركزا ممتازا في البلاد التونسية ، وأن يحول دون تقوية النفوذ الفرنسي ، وانفراد فرنسا بالتدخل في شؤون تونس ، واستطاع الممثل الدبلوماسي الانجليزي أن يحصل لبلاده على عدة امتيازات لأقامة مشروعات في تونس ، مثل امتياز سكة الحديد الجزائرية التونسية ، وامتياز تأجير واستغلال مساحات كبيرة من الارض الزراعية وكان القادة الانجليز يشرفون على تدريب الجيش التونسي .

وأما إيطاليا المنافس الثاني لفرنسا ، كانت ترى ان تونس هي جزء من الامبراطورية الرومانية القديمة ، وانها حق لايطاليا ، كما كانوا يرددون بأن تونس امتداد طبيعي لصقلية ، واستطاع ممثلها المقيم في تونس ان يعقد معاهدة مع الحكومة التونسية منسج الايطاليين بموجبها الكثير من الامتيازات للعامل في تونس ، في المجال الصناعي والتجاري والزراعي وفي التعدين ، بالإضافة الى امتيازات اخرى تتعلق بحرية التنقل والتملك .

ولكن كيف استطاعت هذه الدول ان تتفق فيما بينها ؟؟ أو

كيف استطاعت فرنسا ان تنال بنيتها في احتلال تونس؟

لم تكن المشكلة امام الدول الاستعمارية هي كيفية التغلب على الدول الصغرى ، انما المشكلة هي ارضاء شركائهم من عصاة المستعمرين ، قبل القيام بأي عمل منفرد .



لقد سعت فرنسا للحصول على موافقة إنجلترا بالاعتراف
وانتهزت فرصة احتلال بريطانيا جزيرة قبرص ، اثارته فرنسا
الموضوع في اثناء انعقاد مؤتمر الدول الكبرى في بريسن برئاسة
(بسمارك) ، فاتفق على الاعتراض إنجلترا اي تدخل فرنسي في
تونس ، مقابل عدم اعتراض فرنسا على احتلال بريطانيا لقبرص ،
واستغلت بريطانيا هذه الاتفاقية لتطلق يد لها في مصر .

ولكن اذا استطاعت فرنسا كسب موافقة إنجلترا ، فكيف استطاعت
كسب موافقة ايطاليا ؟ ظل الصراع عنيفا بين الدولتين ، وحاول
مثل كل دولة الحصول على امتيازات اكبر لدولته بمختلف الطرق
واكن فرنسا اوحى لاطاليا ان بإمكانها ان تحتل طرابلس (ليبيا)
وان فرنسا لن تتدخل في ذلك .

(ب) مبرر الاحتلال :

والآن بعد ان استطاعت فرنسا ارضاء شريكها باقتسام الغنيمة
اصبحت تنتظر المبرر مهما كان ضعيفا لتحتل تونس ، فقد حدث
سنة ١٨٨٠ ان حاولت احدى الشركات الفرنسية شراء ضيعة كبيرة
في تونس لاستغلالها ، لكن (الباي) لم يملكها من ذلك ، فاعتبرت
فرنسا ذلك عملا عداوياً ضد فرنسا .

وفي ١٦ ابريل سنة ١٨٨١ ، ابلغت فرنسا (الباي) ان الجنود
الفرنسيين سيعبرون الحدود التونسية لمطاردة بعض القبائل الجزائرية
الضاربة ، والتي التجأت الى الاراضي التونسية ، وطلبت منه ان
يتعاون معها لاقرار الامن والنظام .

وفي ٢٩ ابريل من نفس السنة عبر الجنود الفرنسيون الحدود واحتلوا (الكان) و (طبرقه) بدون مقاومة ، كما انزلت فرنسا بعض قواتها في ميناء - بنزرت - التونسي .

وبعد احتلالها تقدموا صوب العاصمة ، وهناك قدم السفير الفرنسي الى (الباي) نسخة من المعاهدة المطلوب منه التوقيع عليها ، واعطى (الباي) مهلة لبضع ساعات ليقوم بتوقيعها ، فما لبث ان وقعها ، وهكذا تمت السيطرة الفرنسية على تونس .

ج) نص الاتفاقية :

البند الاول : نص على تأييد وتجديد جميع المعاهدات السابقة بين الجمهورية الفرنسية (و باي) تونس .

البند الثاني : تحتل القوات الفرنسية المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النظام والامن بالحدود والسواحل ، وينزل هذا الاحتلال عندما تقرر السلطان الفرنسية والتونسية ان الادارة المحلية قادرة على المحافظة على الامن .

البند الثالث : تتعهد فرنسا بحماية (الباي) من اي خطر يهدد ذاته أو مملكته .

البند الرابع : تضمن فرنسا تنفيذ المعاهدات المعقودة بين تونس والدول الاخرى .

البند الخامس : يمثل فرنسا في تونس وزير مقيم للاشراف على تنفيذ احكام هذه المعاهدة .

البند السادس : يقوم المثلون الدبلوماسيون لفرنسا في البلاد
الاجنبية برعاية مصالح تونس في هذه البلاد .

البند السابع : تتفق الدولتان على وضع نظام مالي للوفاء بواجبات
الدين العام .

وقد وقع هذه المعاهدة كل من (محمد الصادق)
بإلى تونس ، والجنرال (بريداد) المفوض من رئيس الجمهورية
الفرنسية . (١)

ج) تونس بين انياب الذئاب :

احتلت فرنسا تونس باسم النظام والامن كما نص عليها البند
الثاني من الاتفاقية ، ولكنها اعتدت اول ما اعتدت على النظام
الديمقراطي للبلاد ، فلم يكن من اليسير عليها ان تستحوذ على
مقاليد الحكم ، ما دامت السلطة التشريعية بيد اصحاب البلاد
الشرعيين ، فألغت الدستور ، والمجلس التشريعي ، واصدرت
سلسلة من القوانين والتشريعات التي تمكنها من السيطرة على
البلاد ، واستنزاف مائها ، والهيمنة على مقاليد الحكم فيها ،
فاعتدت على حريات الافراد والجماعات واستهزت بحقوق التونسيين
وامتهنت كرامتهم .

(١) د . شوقي الجمل ، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، مكتبة الانجلو

المصرية ، ١٩٧١ ، ص ٤٧٦ .

وجسريا على الخطبة التي اتبعتها فرنسا في معو الكيان التونسي
وانتزع السلطات من يد اصحاب البلاد عمدت الى شل الهيئة
الموزارية ، فألغت مناصب الوزارات الوطنية التي كانت موجودة قبل
الاحتلال ، ولم يبق فيها غير منصب الوزير الاكبر ، ووزير التعليم
والاستشارة ، ثم اضافت اليها منصب وزير العدل سنة ١٩٢١ ،
ومنسب وزير الشؤون الاجتماعية سنة ١٩٢٥ .

وليس لهذه الوزارات التي يتولاها التونسيون اية سلطة
فعلية ، فهي شياكل لا روح فيها ، ووضع بجانب كل وزير تونسي
مدير فرنسي بيده السلطة الحقيقية ، واما المقيم العام فيعتبر
رئيس الوزراء الفعلي ، ووزير الخارجية في الوقت نفسه . أما
بقية المصالح الاخرى من مالية ، ومصارف ، واشغال عامه ، وبريد
واقتصاد الخ ، فيتولاها مديرون فرنسيون . (١)

وقد جرد مدراء " النواحي " من كل نفوذ ، اذ وضع بجانبهم
موظفون فرنسيون ينوبون عن المقيم العام ، ويمسك كل سلطة .
والمقيم العام بوصفه رئيسا للوزراء ، فهو الذي يصدر
القرارات ويوقعها اما الوزراء التونسيون ، فليس لهم اية سلطة
مهما ضؤلت ، ويقتصر عملهم على حضور جلسات مجلس الوزراء
الذي يعقده المقيم العام مرة كل شهر .

(١) عبد الحميد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، القاهرة ،

دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

د (اعتداء فرنسا على السلطة القضائية التونسية) :

اما اعتداء فرنسا على السلطة القضائية ، فيتجلى في انشاء محاكم فرنسية تتولى القضاء الى جانب المحاكم التونسية ، ولهذه المحاكم الفرنسية اختصاص واسع يشمل المنازعات بين الفرنسيين والاجانب أو بين هؤلاء والتونسيين ، وكذلك جميع المنازعات المتعلقة بالعقار المسجل ، وهكذا انتزعت فرنسا جزءا كبيرا من سلطاتها ، ولم يبق من اختصاصها الا ما يتعلق بالتونسيين وحدهم أو بالعقارات غير المسجلة ، هذا فضلا عن ادارة المحاكم التونسية التي يتولاها رؤساء فرنسيون .

وقد جعلت الجرائم السياسية من اختصاص المحاكم الفرنسية وحدها منذ سنة ١٩٢٦ ، فالوطنيون التونسيون الذين تتعلق بهم قضايا سياسية ، لا يحاكمون امام محاكم تونسية ، بل يختص بالنظر في امهم القضاء الاستعماري .

وهكذا خرجت هذه المحاكم عن حدود اختصاصها الطبيعي وهو تحقيق العدالة ، فأصبحت أداة تستخدم لارهاب الوطنيين والقضاء على الروح القومية .

ولقد بلغ استهتار الفرنسيين بالقضاء والحريات العامة الضرورية للأفراد الى حد ان اصدرت السلطة الفرنسية امرا بتاريخ ٦ مايو سنة ١٩٣٣ ، يخول المقيم العام حق اعتقال اي فرد لمدة سنتين قابلة للتجديد دون اية محاكمة ولو صوريه (١).

(١) عبد الحميد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، القاهرة ، دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ ، ص ٨١ .

هـ) فرنسا تضع يدها على عناصر الانتاج التونسي :

٩ ان غاية الاستعمار هي الاستيلاء على ثروة البلاد المستعمرة (بضم السين) وتوجيه السياسة الاقتصادية فيها من انتاج وتداول وتوزيع لصالح دولته الاحتلال على حساب البلد المحتل ، والموصول الى هذه الغاية تضع النظم والقوانين الملتوية وتتخذها أداة لتنفيذ اغراض الاستعمار الاقتصادية .

وقد بادرت فرنسا منذ بداية الاحتلال الى وضع يدها على عناصر الانتاج والتداول . واطلقت يد الفرنسيين والاجانب في تونس مهينة لهم سبيل الاقتصاب ، مما ادى الى اختلال التوازن الاقتصادي وانخفاض مستوى المعيشة بين الاهالي وقد شمل التدخل الفرنسي من هذه الناحية جميع فروع الانتاج الثلاثة : الزراعة والصناعة والتجارة .

ولاجل ان تسيطر فرنسا تمام السيطرة على الناحية الاقتصادية في البلاد وجهت همها الى الاستيلاء على الاراضي الزراعية ، فأصدرت التشريعات المختلفة ، لانتزاع الاراضي من يد التونسيين واقرار الفرنسيين بها ، فأصبح هؤلاء هم المتحكمين في حياطة البلاد الاقتصادية . وبذلك أصبح الشعب التونسي مهددا بالفقر امام هذه القوى التي تسند لها السلطة التشريعية والتنفيذية في البلاد .

و) فرنسا تعمل على محو الروح القومية ومحاربة اللغة العربية :

اتجهت سياسة فرنسا التعليمية منذ الاحتلال الى محو الروح القومية وذلك بمحاربة اللغة العربية ، والاستعاضة عنها باللغة

الفرنسية ، وتطبيق برامج خاصة لاجراء الناشئة عن قوميتها
العربية ، وقطع الصلة بينها وبين ماضيها وتاريخها لتتمكن من
ادماجها في العنصر الفرنسي .

كانت اللغة العربية هي لغة التعليم قبل الاحتلال ، وكانت
جامعة الزيتونة وغيرها من الكتاتيب والزوايا التي تشتمل على كثير
من التلاميذ الذين يتلقون الثقافة العربية على الطريقة القديمة ،
الى جانب مدرسة حديثة كبرى يتلقى فيها الطلاب العلم العصرية
واللغات الاجنبية .

وفي سنة ١٨٨٣ أسس الفرنسيون ادارة العلوم والمعارف ، ووضعوا
برنامجا لانشاء مدارس ابتدائية فرنسية للاوروبيين والعرب ، على
قرار المدارس الموجودة في فرنسا نفسها ، ولم يكن للغة العربية
اي وجود في هذه المدارس ، وكانت نظرية مدير العلوم والمعارف
وقتذاك - وهو موظف فرنسي - ان ينشئ شبكة من المدارس في
كل المدن يؤمها الاطفال سواء كانوا تونسيين أو من الجاليات
الاجنبية الاخرى لينشأوا نساء فرنسيه صرفة . (١)

وبخلاصة القول ، ان السلطة الفرنسية اتجهت في سياستها
التعليمية الى محاربة اللغة العربية ، من جهة ، وفي سبيل
فرنسة الناشئة من جهة اخرى .

(١) عبد السيد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، ص ٨٤ .

(و) فرنسا تهمل الناحية الصحية في القطر التونسي :

ولم تقم السلطة الفرنسية بواجبها من الناحية الصحية ، بل أهملته ككل الأعمال ولم تخصص في الميزانية التونسية من الاعتمادات مما يكفي القيام بشئون الصحة ، ويتضح ذلك من ضآلة عدد المستشفيات وعدد الاسرة بها ، وانعدام الاجهزة الطبية اللازمة .

ولم تكن السلطة الفرنسية تعير الاسعاف العام اي اهتمام ، فوسائل مقاومة الامراض المعدية لا تكاد تذكر . واكثر الامراض فتكا كان مرض السّل ومع ذلك لم تكن توجد مصدة واحدة لمعالجة هذا المرض .

كما ان حماية الطفولة كانت معدومة ، ولم تتعهد السلطة الفرنسية الشيوخ والعجزة من التونسيين ، بينما تجددها قد خصصت للفرنسيين مؤسسات متعددة تنفق عليها من الميزانية التونسية .

وكثرت نسبة الوفيات في تونس بسبب اهمال السلطة الفرنسية لشئون الصحة ، وخاصة مقاومة الامراض البوائية ، والامراض المعدية وهو راجع كذلك الى الفقر ، وقلة التغذية السليمة يعانيها الشعب من جراء سياسة فرنسا الاستعمارية .

في هذا الوسط ، وفي لجنة هذه المعاناة عاشر الشعب التونسي ، وعاشر شاعره ابو القاسم الشابي ، يجاهر الاستعمار عداءه ، ويدعو الشعب الى الثورة ، يدعوه الى الحياة عن طريق الايمان بالحياة والايمان بالحق ، فايما الشعب المهضومة الحقوق

كفيل ان يرد لها حقوقها ، واتحاد الامم المظلومة على امرها
قمين ان يرد الى الشعوب حريتها ، وما بعد الليل البهيم ،
والظلام ، سالك الا فجر المشرق والنهار الساطع .

ان الجرائم التي ارتكبتها المستعمر لا يمكن ان يقبلها كل من
يشعر بكرامة انسانيه ، فنهض الشعب التونسي وقام الاحتفال
وقارعه على صوت شاعره .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

ففي سنة ١٩٢٠ انشأت الشبيبة التونسية - حزب الدستور -
وكان برنامجها يهدف الى اقامة نظام ديمقراطي ، وتوطيد الحكم
في القطر التونسي على اساس دستوري . اتخذت فرنسا مسن
التدابير ما يكفي لقمع كل حركة فاعتقلت عام ١٩٢٥ من الزعماء
التونسيين ما اعتقلت ، ونفت من نفت ، وأرغقت الشعب بضروب
عجيبة من الاقفار والاذلال .

وفي عام ١٩٣٠ ، ضاعفت فرنسا ضغطها على الشعب التونسي
فتجمع الشعب التونسي ، وآمن بأهمية تضافر جهوده اذا اراد
قهر المستعمر فأنشأ - حزب - الدستور الجديد - الذي ظهر
على مسرح السياسة التونسية عام ١٩٣٤ أي في السنة التي قضى
بها ابو القاسم نحيبه .

يتضح من هذا العرض التاريخي ان تونس لم تعرف الراحة ولا الاستقرار ولا الرخاء منذ منتصف القرن الماضي ، ولكن الحركة الوطنية التونسية بدأت تظهر بوضوح بعد عام ١٩٢٠ حين اسست الشبيبة التونسية حزب - الدستور - واذا عرفنا ان وهي ابي القاسم انما تفتح بين عامي ١٩٢٥ ، ١٩٣٢ ، اي في عهد كانت تجتاز فيه بلاده أمر وأقصى مرحله من مراحل تاريخها الحديث ، وفي هذه المرحلة بدأ الشباب التونسي يتصدى / للفنزوينازله ، ذلك هو الجو المكفهر الذي احساط بشاعرنا ، وتلك هي الاوضاع الاجتماعية القاسية المؤلمة التي نما في وسطها احساسه . فكان لا بد ان تحدث فيه اعماق الاثر ، وهو الشاعر المرهف الحس ، المتوقد المشاعر ، وكان لا بد ان يؤثر فيها ، فقال من الشعر ما ساعد على تأجيج الثورة ، وقال من الشعر حائسا شعبه على الصمود والتحدى ، بل ولم يقف به الحد الى هنا بل ساهم عمليا في مظاهرات الاحتجاج التي كان يقودها ضد الاحتلال .

* * *

الفصل الثاني

بيئة أبي القاسم الخاصة

١ - مولده ونشأته :

ولد أبو القاسم بن محمد بن أبي قاسم بن إبراهيم الشابي في الثالث من صفر سنة ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين هجرية ، الثالث من نيسان (ابريل) سنة ألف وتسعمائة وتسع ميلادية . في قرية الشابية من أعمال توزر من الجنوب التونسي ، وهذه المنطقة تدعى بلاد الجريد - ومعناها بلاد النخيل - " ومنطقة الجريد في الجنوب التونسي عبارة عن أربع واحات هي : توزر ، نفثا ، المديان ، والحمه ، وكلها تقع في البرزخ الذي يفصل السبختين الكبيرتين : الجريد وفرسه ، على تخوم الصحراء وقفارها المترامية ، وهذه الواحات الأربع تلفت الانظار ، وتستحوذ الاثدة لما هي عليه من سعة ، وما تتمتع به قراها الكبيرة من اهمية اذ ان مياهها غزيرة وافرة ، ونباتاتها واشجارها باسقة رائحة ، ومواقعها جميلة وأخاذة " (١)

نشأ أبو القاسم في بيت علم من اسرة محافظة ، فأبوه محمد الشابي درس على الشيخ محمد عبده ، واجيز من الازهر الشريف وولي القضاء ببعض جهات البلاد التونسية ، وكانت اولس البلاد التي عمل بها (سليانه) كان ذلك بتاريخ ١١ ربيع أول ١٣٢٨ هـ ، ٢٢ آذار (مارس) ١٩١٠ م بعد ولادة أبي القاسم بسنة تقريبا ، ثم عين في قفصه في ٢١ رمضان

(١) عبد اللطيف شراره ، الشابي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ ، ص ٨ .

١٣٢٩ هـ ، ١٤ سبتمبر ١٩١١ ، ثم انتقل الى قابس في ١٥ صفر ١٣٣٢ هـ ،
ثم انتقل بعد ذلك الى جبال تالة في ٢٢ رجب ١٣٣٥ . وكان
ابو القاسم يتنقل مع والده في كل المناطق التي عمل بها ^(١) ، وبهذا
يكون ابو القاسم قد طوَّف في مختلف انحاء البلاد التونسية ، وعاش حياة
شعبه ، واطلع عليها في ادنى البلاد واقصاها ، وكان لذلك كله اثر
على حياة ابي القاسم ، وعلى صنع اتجاهااته ، فمن ضيق اختلاطه بأبناء
شعبه في نواحي البلاد المختلفة ، اطلع على كل المآسي التي كان
يحياها هذا الشعب ، وشاهد مظاهر التخلف والبؤس التي ماناها ابناؤه
الامة .

٢ - هافته :

درس الشاعر في اول مراحل حياته في الكتاتيب ، دخلها وهو
في الخامسة من عمره ، وحفظ القرآن بكامله وهو في التاسعة من عمره
وتولى والده تثقيفه وتدرسه حتى بلغ الحادية عشرة .

وفي بداية الثانية عشرة من عمره ، في ١١/١٠/١٩٢٠ التحق
بكلية الزيتونة واستمر يدرس بها العلوم الدينية واللغوية حتى تخرج فيها
سنة ١٩٢٨ ، وبذلك دخل ابو القاسم حين دخل جامع الزيتونة خضم
الحياة الواسع في عاصمة بلاده ، وتمتع بالحرية المطلقة ، فهو يختلف
الى دروس الجامع ، حتى اذا كان وقت الفراغ امضى الساعات الطوال
بمكتبة الخلدونية ، او بمكتبة قدماء الصادقية ، وفي العاصفة كتب أول قصيدة
له ، ويقول اخوه الامين الشابي : أن أول قصيدة قالها الشابي كانت

(١) عامر غديرة ، محاولة جعل اطار لترجمة الشابي ، مجلة الفكر التونسية س ٥ ، ع ٣
ص ١٣ - ٢٥ ، ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو
ص ٤٢ - ٥٥ .
٢٣ / ٠٠٠

في الخامس عشر من ذى الحجة ١٣٤٢ ، ١٨ يوليو ١٩٢٤ ، فاذا علمنا ان الشابي ولد في عام ١٩٠٩ يكون الشابي قد بدأ ينظم الشعر وهو في الخامسة عشرة من العمر .

وكانت أولى قراءاته الادبية ما انتجه أدباء المهجر من امثال (جبران ، ونميه ، وأبي ماضي) . وعكف ايضا على دراسة الانتاج الادبي القديم في عيون كتبه ، كالأفاني ، وصبح الاعشى ، ونفس الطيب ، والكمال ، والامالي ، والعمدة ، والمثل السائر ، والصناعتين وغيرها .

وفي سنة ١٩٢٨ حاز ابو القاسم الشابي على شهادة التطويق التونسية ، وبعد ما انتسب الى مدرسة الحقوق التونسية ، فتخرج منها سنة ١٩٣٠ .

٣ - ابو القاسم الشابي كان يجهل اللغات الاجنبية :

كان ابو القاسم الشابي يجهل اللغات الاجنبية ، وتصذر عليه قراءتها بلغاتها الاصلية فلجأ الى المترجمات ، فقرأ تاريخ الادب الغربية واطلع على فنونها واكثر من قراءة "لامرتين" و "جوته" .

وقد اصبح المامه بالادبين الفرنسي والانجليزى واسعا فصار يتحدث فيهما كما يتحدث من نال اكبر الشهادات في الادب الغربية . (١)

ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور محمد مندور حين يقول "ومن الغريب انني عندما طالعت بمضيقصائد الشابي ، ومقالاته النقدية ، كنت اجزم

(١) ابراهيم ابو رقمة ، حياة امي القاسم الشابي ، مقال ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو ، ص ٢٢ .

بأن هذا الشاعر ، قد كان يجيد لغة اجنبية تمكنه ، لا من الالمام
بآداب الغرب ، فحسب ، بل من تذوقه لتلك الاداب واحساسه بها ، وتمثله
لها ، ثم عدت الى ما كتب عن تاريخ حياته ، فأخذتني الدهشة كل
الدهشة عندما علمت انه لم يكن يعرف اية لغة اجنبية ، وانه تخرج من
جامع (الزيتونه) بتونس ، ثم التحق بكلية الحقوق التونسية ، وتخرج منها
سنة ١٩٣٠ ، ولكنه لم يتعلم لغة اجنبية ، وعندئذ ادركت اننا امام احدى
تلك العبقريات التي لا يستطيع البشر لها تفسيراً ، لانها هبة من الله . (١)

٤ - كان ابو القاسم محبا للمطالعة :

يقول الاستاذ ابراهيم ابو رقعة ، وهو واحد من عرف الشابي
كان عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين ، وكنت فيه كثير التردد على مكتبة
الخلدونية مساءً غالب كل يوم ، وكنا معشر الرفاق بالمكتبة نقرأ بعد فوق
الاصابع ، واعني بالرفاق الذين ينذر تخلفهم ، وكان من بينهم فتى يدخل
علينا بخطين سريعين تدل على الحيوية والنشاط ، مجهول من الجميع ،
يأخذ كرسى بقاعة المطالعة ، بعد ان يحيي المطالعين بصوت خافت لا
يكاد يسمعه القريب اليه .

ثم يقف بجانبه قديم المكتبة ليحضر له ما يأمر بطلبه ، واذا
المطلوب مجلدات ضخام وكتب تحسار في حملها وتقليب اوراقها بسداه
الصفيرتان ، ثم ينكب على دراستها فيرحتفل بمن حوله ، ولا ينصرف
بصره من مطالعة كتاب الا الى غيره ، فكان وقتئذ لسان حال المطالعين

(١) د . محمد مندور ، الشابي روح طائرة ، مجلة المجلة ، القاهرة ع ٦ ،
يوليو ١٩٥٢ . ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم
كرو ، ص ٩٦ .
٢٥ / ٠٠٠

يقول : مالك وهاته الكتب ، وأين لشاب مثلك ان يفهم ما ترمي اليه وما تحويه اسفارها الضخام ؟ وكان البعض الاخر ينظر اليه نظرة المشفق الآسن على ضياع وقت هذا الفتى الذى لا يزال الشباب امثاله بالانهج والطرقات ، وعكذا كان ذلك الفتى شغل المطالعين ، فهم يتحدثون عليه عمسا ، ولا يخل احد من ان يشير اليه اشارة الهازئ الساخر .^(١)

٥ - مراحل حياته الثقافية :

ويستمر الاستاذ ابراهيم ابو رقصة في حديثه عن الشايبى فيقول "حدثني ابو القاسم عن نفسه ان الطور الاول الذى قطعه من حياته الفكرية هو التنك والانتطاع الى العبادة ، وانه كان يقضي اليوم أو اليومين لا يخرج من مصبده ، وربما مكث الزمن الطويل بدون طعام أو شراب تمذيها للنفس ، وكمرها لهاته الدار ، وكان يؤمن أن يأتيه في وحدته طائف يخبره بالغيب .

ثم نارق ابو القاسم هذا الطور من حياته الفكرية بمناسبة وروده على الجامع الاعظم ، وفي يقيني انه بقي اثر بنفسه من تلك التعليمات التي قررها حجة الاسلام الفزالي ، والشمس البتريزى ، وحيي الدين بن العربي ، ثم تغيرت عقلية ابي القاسم بعد اطلاعه على الادب المعاصر الذى اتجه ادباء مصر المعاصرين ، واطلاعه على ادب المهجر ، وتأثره كثيرا بزعميم المدرسة المهجرية جبران خليل جبران .

(١) ابراهيم ابو رقصة ، حياة ابي القاسم الشايبى ، مقال ورد في كتاب دراسات عن

الشايبى اعداد ابو القاسم محمد كرو ، ص ٧٢ .
٢٦ / ٠٠٠

وفي طوره الثالث ، وهو طور النضوج والاستقلال في الرأي والتفكير ، طور الاختراع في الادب والابتكار ، طالع ابو القاسم من كتب الاقدمين آلاف المجلدات وطالع كل ما وصلت اليه يده من كتب المتأخرين ، وله شغل خاص بمطالعة ما يترجمه ادباء المشرق من كتب الغرب ، من مثل ترجمات العقاد وهيكل والمازني .

٦ - ترجمه الحركة الطلابية المنادية بالاصلاح :

كان ابو القاسم الشابي أول رئيس للجنة الطلبة التي نادت بتطوير أساليب التدريس في جامع الزيتونة ، وهو الذي وضع برنامج أول عمل للطلبة بالاصلاح ، أوضحه في الجلسة الاولى للجنة الطلابية التي انعقدت في ٥ رجب سنة ١٢٤٧ هـ ، وحين القي القبض على عدد من الطلبة اظهر ابو القاسم ثباتا وشجاعة متناهية . (١)

٧ - حبه :

اختلف الدارسون للشابي في حقيقة حبه ، فالاستاذ عامر غديرة يؤكد هذا الحب ، وأن الشابي عرفه في رأس الجبل حيث كان يحمل ابوه ، (٢) نجد ان الاستاذ محمد الحلوي ينكر هذا الحب ، ويحاول تحليل ما قاله الشابي فيه من شمر ونشر ، بأنه تمجيد لجنس المرأة وجمالها وفتنتها ، لا افتتان وحب لاسرائيل بالذات ولكن الاستاذ ابو القاسم كسرو يؤكد هذا الحب ويقول : ورغم اننا لم نعرف بعد وقد لا نعرف

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شمره ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٠ ، ص ٥٧ ، ٥٨

(٢) عامر غديرة ، محاولة جعل اطار لترجمة الشابي ، مجلة الفكر التونسية ص ٥ ، ع ٣ ، ص ١٣ - ٢٥ ، ورد في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم محمد كرو ، دار المغرب العربي ، تونس ، دون تاريخ ، ص ٤٢ - ٥٠ . ٢٧ / ٠٠٠

ابدا حقيقة هذه المرأة التي احبها ، الا انني اجزم بأن الشابي احب
فتاة معينة ، وانه شغف بهذا الحب الى درجة المهادنة والتقديس . (١)

أما الاستاذ ابو القاسم محمد بدرى ، فيرى ان ابا القاسم قد
احب حبا عذريا وان هذا الحب كان اعظم عزاء وأعظم عوض لكل ما فقد
من حياته المليئة بالآلام والسقام . (٢)

ومهما يكن من امر فان في شعر الشابي ما يؤكد هذا الحب
ويمززه ، لانه شعر لا بد وان يكون صدر عن قلب عانى الحب فخر
لذته ، وعانى من قوته ، مما سنعرض له حين نتكلم عن الشعر الفحل
عند ابي القاسم الشابي .

٨ - زواجه :

يمدوان ابا القاسم لم يوفق في الزواج ممن يحب ، فقد وردت
في اشعار ابي القاسم قصائد وأبيات تدل على موت من احب ، وان موتها
قد عدم قلبه وحطم نفسه ، اسمع اليه يقول :

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الياسمه
واليوم قد امست كاعماق الكهوف الواجمه
قد كان لي ما بين احلامي الجميلة جدول

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي ، حياته - شعره ، منشورات دار مكتبة الحياة ،
الطبعة الثالثة ، ١٩٦٠ ، ص ١١٢ - ١١٤ .

(٢) ابو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، الشابي والتيجاني ، دار
المصيارف بصر ، ١٩٥٩ ، ص ٥٧ . ٢٨ / ٠٠٠

يجرى به ماء المحبة ظاهرا يتلسل
هو جدول قد فجرت ينموه في مهجتي
أجفان فاتنة أرتينهما الحياة لشقوتي
أجفان فاتنة تراءت لي على فجر الشباب
كمروسة من غايات الشعر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السماء وراء نهاتيك الغيم
نحو السماء وها أنا في الأرض تمثال الشجون^(١)

وبعد وان هذه الصدمة بوفاة محبوبته ، قد عجبت بأهله فنهضوا الى زواجه ، فتزوج قبل ان ينهي دراسته العاليه ، علّه ينصرف عن اوهامه وتأملاته الحزينه وقبل بالامر ، ولكن زواجه لم يوفق لانه لم يجد في زوجته تلك الصورة الشعرية الرائعة التي كان يرسمها للمرأة في اشعاره ، ويتغنى بها في قصائده . وترك الشابي بعد موته طفلين .

٩ - وفاة والده وما سببت له من احزان :

كان ابو القاسم الشابي شديد الحبالايه ، ذلك الاب الذي طالما حنا على ابنه ، واعتنى به ، واهتم بتربيته ، وصحبه الى كل مكان عمل به ، ازداد تعلق ابي القاسم بالده ، وأصبح ينشد فيه المثل الاعلى ، ولكن المرض احاق به في صيف عام ١٩٢٩ ، ومع ان الشابي كان قد بلغ سن الممر العشرين ، الا ان فزعته على والده كان شديدا ، صحب ابو القاسم والده الى مقطر رأسه ، وسهر عليه نسي ساعات مرضه العصيب ، واحتضر الاب ، وانترعه الموت من قلب أسرته ، فتألم ابو القاسم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٢٠ .

وكان المصاعيد مما يتألم الناس، ولم يتحدث عن شيء بألم وحسرة
مؤثرة قائمة، كما تحدث عن لحظات أبيه الأخيرة، يظهر ذلك
بوضوح في رسالة بعث بها إلى الأستاذ محمد الحليوي صديقه،
يقول :

"أخي الفاضل :

تحية وشكرا

وبعد فإني أود أن أحدثك وأناجيك، وأصبر لأن أرافقك وأماشيك
في تلك السبل التي جال فيها ببراعك ولكن بماذا ؟ أبهذا القلب
الذي كسرتة صخور الحياة ؟ أم بهذه النفس التي مزقتها اعاصير
الوجود ؟ أم بهذا الفكر الواهن المخبول ؟ أم بهذا الوجدان التائه
في شطاب الغد الفاضل المريب ؟

آه ! أيها الاخ ان الحياة لأعول من ان تحتل على مثل هذه
الحال السيئة الاليمة وان خضم الزمان لأرهب من ان يتقحمه المرء، وهو
كما اراه جبار في تمرده قوى في جبروته وطفيانه .

ها هي الاقدار العتية تعبت بنا نحن البشر الضفاف، وترميننا
بما لا نستطيع احتماله ولا نملك اعتزاله، واتى لنا ذلك، ونحن اهداف
اللجج الشائره، واعشاب السيول الهادرة .

لقد ضقت ذرعا بالحياة يا صاحبي - ولا أخالني ان ظلت الحياة
على ما هي عليه اليوم - الا ذاهبا إلى القبر أو في سبيل الجنون .

إنني أحاول ان اخط اليك ما تسمه نفسي من مرارة الوجداع
وهمم الزمن الجائر، فلا أستطيع الا مثل هذه الكلمات المقطعه التي
لا تكاد تبين عما أكابد من فصص لا أذكر ان قد مرت علي فيما

سلف من عمرى أيام أنكد من هذه الايام أو أشد .

ففي الصباح أجلس الى أبي الذي انهكه المرض وأضناه وأرضه
الالم وأذواه ، وطرفي الى وجهه الشاحب العليل ، والى جفنه الذاعل
الذى أذبله الالم ، وأذوته الحمى والى جسده المتهدم الواهن .
وسمعي الى نفسه المتقطع وتأوهات المتتابعه ، ومهدى به ذلك الرجل
الجلبد ، فما أراه كذلك الا وتعلأ صدرى الزفريات ، وتعلأ عيني المبررات ،
وتنطلق من قلبي المثلج وصدرى المكلم أنات القهر ودعوات الرجاء
الى اله الحياة والموت وبساط النور والظلمات ان يشفي هذا الاب
الواهي الطريح ، وان يشقق على صبيته الصغار الذين ما زالوا واقفين
بباب الحياة .

ويستمر ابو القاسم مخاطبا صديقه مينا شقاءه وعناءه فيقول :
" آه ! رب اشقبتني ، وما أشقيت احدا من عبيدك ، رب فذبتنى وأنا
عبدك الذى لم يحدف باسمك ولا كقر بنعماك ، رب رحماك فان عب
القدر عليّ شديد ، ودد ممي يا صديقي دعوات الى الله ، وصل
بقلبك الطاهر مع هذا القلب الكبير الى ذلك الذى يسمع خفقات
الارواح لملة يلبي دعواتنا التي نرفعها اليه .

ويصل الالم بأبي القاسم فيحقر الحياة ويحقر نفسه ويستغفرها
فيقول : " ان هذه النفس يا صاحبي لأهون والله من ذره وصل في
اكف الرياح ، وان هذه النفس لأقرب من تلك البعوضه المغتبطه
بطيئنيها بين المزابل . وان هذه النفس لاشقى بما وضع الله فيها
من شعور من كل انشاء الحياه . ان الذره من الرمل لتعبت بها ما
شاءت الرياح ثم تقرأ المصافه وتسكن فاذا بها ذرة هادئه ساكنه بين

ذرات الرمال تحلم أحلامها الأبدية الخرساء ، وترقد بعيداً عن ضجيج
الدُّعور وضوضائها ، وأنات الحياة وأرزائها ، أما هذه النفس فانها
طائر معذب مطعون بسكب دمائه فوق الصخور القاسية ، وبين أشواك
السبيل دون ان يظفر بعشه الذي عشت به الماصفه ، ولا يسره الذي
شرّده النصور .

ويشتد الانفصال بالشابي ، فاذا هو حائر ، يبحث عن سر
الحياه ، ويعلم انه سيدأب في السير لملّه يهتدي أو يدرك حينه
يقول :

" ها أنا مدلج في سبيل الحياة الاقتم ، وما هي الاشباح
الرهيبه تتعقبني وتسمني أناشيد السخره والازدراء ، ولكني سأظل
سائرا ومنظرا صباح الحياة . سأظل مرددا على هامه الغابات
والكهوف أغنية الحيره والحنين الى أن يبدو الصبح ، أو يسكتني صراخ
القبور :

يا بني أمي ، ترى ابن الصباح ؟ قد تولّى الصمر ، والفجر بعيد
وطنى الوادى بمشوب النواح وانقضت انشودة الفصل السعيد
أين نايى هل تراسته الرياح ؟ أين غايى ؟ أين محراب السجود ؟
يا بنات الليل ، قد غاض الصداح منذ طاشت نشوة العيش الحميد
يا بني أمي ، ترى ابن الصباح ؟ أوراى البحر ؟ أم خلف الوجود
يا بني أمي ترى ابن الصباح ؟

سأظل سائرا في سبيلي ، وسأظل نائرا في هامه الحقول
الجرداء الصارده بذور الأسى الى ان يبدو والقمر الجميل ، فتفتتح
الأكمام عن ورود جميلة ضاحكه ، وينفرد المبلبل وراء الزهور ، سأظل
سائرا في سبيلي متغنيا بهاته الاوجاع والدموع وان كنت أعلم .

ان الدهور البواكي غنيّة عن دموعي

وان قلب الحياة تخين بالجراح وان راحة الليل ملأى بالدموع الدائمة

ويستمر ابو القاسم في هذه الرسالة التي تبين فلسفة الحياة
عنده ، وفلسفة الموت ، فاذا به يسير في شعاب الحزن ، ويمشي
في كهوف الشقاء ، ولكنه مع ذلك لا زال ينتظر خيط شعاع ينبثه
بحقيقة الحياة ، وماهية الموت ،

ومعتذر ابو القاسم لصديقه الذي أدمى فؤاده برسالته تلك
التي يعتمر منها الهم ، فيقول :

"غفوا يا صديقي ، فقد آلتك وصوت نفسك عصوا ، فقد كان
يودى ان أسرك وان اسمك اغاني السره بدل الحان الالم ، ولكن
ماذا أصنع ؟ والمرض لا ينطق بغير الأنين ، والجرح لا يرشح بغير
الدماء ، ان الظلم لا تلد الضياء . وان الحزون لا يتكلم بغير احزانه
انت صديقي ، وليس لي ان اعدك صديقي حقا الا اذا قاسمتني كسوس
الملقم ، وعصير الحنظل ، كما سقيتني رحيق العره ومسلسبيل الفردوس .

رغبت اليّ يا صديقي ان أتلو تحياتك وصلوات قلبك على "أصداء
الجيل ، وأسرار الغاب والى كل شحور يغني ، وكل يائس ينتحب "
وذلك عهدى في تحيات الشمرء يا صاحبي فانها لتكون عنده جميله
كأرواحهم الملهمة النبيله ولكني يا صديقي لم ابلغ تحياتك الى نفسي
القرحة الباكية لانها هي " البائس الذي ينتحب " في سكون الليل ،
كلما مكن الى نفسه وتفكر في الحياء . أما الغاب وأسراره والجيل

وأصدائه والشحور وألحانه العذبة الحبيبة ، فان عهدى بها بعيد ،
وان تلك السعادة الالهية الطاهرة وتلك المباح والمناظر والاغاني لا
تنعم بها الا الابصار " الطافحة بالاشعة المكحولة بالبسات ، أما
الاجفان التي قرّحها الدمع واذواها الالم فانها قصبة عن تلك المناظر
منفيه في سحون الحياة " .

لقد تركت وفاة والده أثرا عميقا في نفسه ، بل لعل هذه
الوفاة كانت من أبرز الاحداث في حياته ، فهي التي طبعته نفسه
بالحزن ، وأحلت في قلبه التشاؤم واليأس مما صيغ غالب شعره ، بصباغ
قاتم ، لا يكاد يذكر لذة من لذات الحياة الا ويستدرك ، حين يمرى
شيخ الموت ماثلا أمامه ، فاذا به يمتنذر عما سلف ، ويلوّن صوره
بألوان المذاب ، فأنت تحس في كل قصيدة قالها سرارة العيش " .

ولعل مما كان يساعد على اشارة لواعج الحزن هذه ، اخوته
الصغار الذمين خلفهم والده وراءه ، فتحمل أعباء الصائمه ، ولم تكن
له تجربة في الحياة قبل ذلك ، ونظم ابو القاسم قصيدة في رثاء
أبيه كلها نواح ونديب قال :

يا موت ! قد عزقت صدرى ، وقصمت بالارزاء ظهرى
ورميتني من حائق ، وسخوت مني أى سبيخ
فلبثت مريض الفؤاد أجرا أجنحتي بدمر
وقسوت اذ أقيتني في الكون أذرع كبل وممر
وفجعتني فيمن أحب ، ومن اليه أبث سرى
وأعده فجرى الجميل ، اذا ادلهم على دهرى

وأعدّه وردى ، ومزمارى ، وكاساتي وخمري
وأعدّه غايي ، ومحراي ، وأغنياتي وفجـري
ورزأتني في عمدتي ، ومشورتني في كل أمر
وهدمت صرحا ، لا ألوذ بفيره وهتكيت ستری

ويستمر اهو القاسم مخاطبا الموت ومحاورا ، كأنه وحش يجثم
أسامه ، قد أبدى أنيابه .

يا موت ! ماذا تعني مني وقد مزقت صدري ؟
ماذا تنود وانت قد سوّدت بالاحزان فـكـري
وتركتني في الكائنات أثن ، منفردا باصـري
وأجوب صحراء الحياة أقول " اين تراه قبري ؟ "
ماذا تنود من الشقي بـميشه النكد الضـر
ان كنت تطلبني فهات الكأس ، أشربها بصـبر
أو كنت ترقبني فهات السم ، أرشقه بنحـري
خذني اليك ، فقد تبخر في فضاء الهم عمري
وتهدلت أضغان أمامي ، بلا شمر وزهـر
خذني اليك فقد ظئت لكأسك الكدر الأمـر
خذني فقد أصبحت أرقب في فضاءك الجون فجـري
خذني فما أشقى الذي يقضي الحياة بمثل أمری (١)

ألا ترى كيف يكي الشاعر والده ، لقد أودت الاحزان بأعصابه
ألا تراه منهارا ، انه يكي بكاء الاطفال ، وكأنني بالشاعر قد نسي

(١) اهو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٥ .

أنه ابن عشرين ربيما ، شاب في ريعان العمر ، يجب أن لا يفزع
من الصيبة بمثل ما فزع وأن عليه ان ينهض بالصبة ، وأن يرضى بما
قسمه الله . ولكن انه الشاعر المرهف الحسّ .

١٠ - الشابي يرفض العمل بالوظائف الحكومية :

آثر الشابي ان يعيش ما تدره أملاك الاسره مما لا يكفل لهم
الاكفاف العيش ، ناجيا بنفسه من اسار الوظيفة ، التي قد تلجم فاه
بقيودها ، وتقتل حريته بروتينها . فلم يلج باب الارتساق من
المناصب الحكومية ، ورضي بحياة بسيطة على رأس أسرته بتوزر .

كما رفض الشابي ان يعيش بشعره ، أو يتكسب به ، لان الشعر
في رأيه قمة الشعور ، وذروة العاطفة ، مما ينزعه عن ولو سواطن
الشبهة والريبه .

استمع اليه يقول :

به رضا أمير	لا أنظم الشعر أرجو
تهدي لرب السرير	بمدحاة أو رشاش
ان يرتضيه ضميري (١)	حبي اذا قلت شعرا

ويقول :

به اقتنصا نوال	لا أقوض الشعر أبغبي
جماله ذا جلال	الشعر ان لم يكن في
يسمى بواي الضلال	فانما هو طيف

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٣٢ .

يقضي الحياة طريداً في ذلّة واعتزال
ما الشعر الا فضلاً فيه يرفخ خيالي

١١ - مرضه ووفاته :

اختلف كثير من الدارسين لحياة ابي القاسم في مرضه ، فأجمع الكثير منهم على انه توفي بمذات الرئة . الا ان الاستاذ - ابو القاسم محمد كرو - يثبت انه قد مات بدهاء تضخم القلب ، واعتمد في ذلك على وثائق ونصوص تركها الشابي مكتوبة بقلمه ، وعلى بحث قسام به محمد عامر غديره مستندا فيه على مجموعة من الاسانيد والوثائق المائدة للشابي وأسرته . وعلى اتصالات مع الدكتور محمود الماطري طبيب الشابي الخاص ، الذي أفاد ان الشابي كان يألم من " ضيق الانبئة القلبية " أي ان دوران دمه الرئوي لم يكن كافيا ، وهذا المرض يجعل سيلان الدم في الشرايين من الانبئة اليسرى نحو البطينة اليسرى سيلانا صعبا .

كان الشابي ضعيف البنية ، نشأ متنقلا وربما أصابه هذا الضيق وهو لم يزل صغير السن ، ضاق قلبه وضاقته رثته ، فلم يمد يتنفس تنفسا عاديا ، ولكن أهم ما في المرض ، انه يغير نفسية المريض ، وهو أمر عام جدا اذا كان المريض كاتباً أو أديباً أو رساما أو موسيقيا أي اذا كان فنانا حقيقيا .

منع الاطباء أبل القاسم من ممارسة الجري واللعب بالكرة ومن السباحة ، وقد ترك ذلك الما نفسية عاتياها الشاعر كلما هم باللعب مع اصدقائه ، وكثيرا ما كان يقول معذرا عن دعوة لمثل هذا العمل

" هكذا أمر الطبيب "

وكثيرا ما كتب الشابي مذكرات يصور فيها حاله ، وما ينتابيه
من ألم وشقاء .

" أشعر اليم بفتور في بدني ، وتوسعك في مزاجي ، لا أدري
مأتاه ، وأحس بكآبة عميقة تستحوذ على مشاعري ، وتقيض علي قلبي ،
وتجملني أكره الكتب والاسفار ، والمحابر والأقلام .

لا أريد ان اذكر اكثر مما ذكرت لاني أرى النعم يغالبني ، والاعياء
يदानصني الى النعاس " .

وقال في إحدى مذكراته :

" اعتزمت الذهاب الى حديقة " البلفيدير " ، قال احدهم :
انها مقهاة بعيدة عن صخب المدينة وضوضائها ، قريبة من البرية ،
مكتنزة بالاشجار الجبلية والمشاهد المسببة ، فاستهوانني الوصف ورافقهم
وما هي الا ساعة حتى كنا نسير بين المزارع التي تداعب الشمس
اعشابها ، وكانت مشاهد كثيرة متباينة . هنا صبية يلعبون بين
الحقول ، وهناك طائفة من الشبان الزيتوني والمدري يرتاضون في الهواء
الطلق ، والسهل الجميل ، ومن لي بأن اكون مثلهم ؟

ولكن أنس لي ذلك ، والطبيب يحذر علي ذلك ، لان قلبي
ضعفا آه ! يا قلبي ! أنت مبعث آلامي ، وستودع أحزاني ، وأنت
ظلمة أسرى التي تطفئ على حياتي المعنوية والخارجية .

وأثبت الاستاذ كروني كتابه عن الشابي ، رسالة من الشابي
الى صديقه محمد الحليوي ، وفيها يتحدث عن مرض قلبه حديثا ينفي
نهادتها جميع المزاعم والظنون حول مرضه .

" لقد اشتد الضعف على قلبي في هاته المدة الاخيرة ، مما
أوجب معه الطبيب على حرمانني من كل الاعمال الفكرية ، لا فوق بين
تحضير أو مطالعة أو كتابة لا تألم يا صديقي لاخيك ، فان قلبي هو
منبع آلامي في هذا العالم . ومن يدري ؟ لعله سيكون منبعا لمثل
هاته الآلام في عالم آخر . ان قلبي يا صديقي هو منبع آلام هاته النفس
التائهة المعذبة ، وهذا الجسد المعنى المنهول ، وما دامت أحمل بين
جنبتي هذا القلب الكسير ، وما دامت الحياة تهددني ، ولا ترحم
فانني أشقى أبناءها .

كما يثبت الاستاذ كروني نص وثيقه وجدت في المستشفى الذي
توفي فيه الشابي وهذا نص الوثيقة :

"أبو القاسم الشابي تحت عدد ٢٥٦٢

المر : ٢٦ سنة (ذلك انه يحسب حسابا هجريا من ١٣٢٧ -
١٣٥٣) .

الدين : الاسلام

الحالة : متزوج

المكن : الاربانة

تاريخ دخول المستشفى : ٣ أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٣٤ .

الفحص الطبي : مرض القلب

تاريخ الوفاة : ٩ أكتوبر ١٩٣٤ . (١)

كل هذه الوثائق لا تدع مجالاً للشك في مرض الشابي ، الذي
ألم به لمدة خمس سنوات امتدت من عام ١٩٢٩ - ١٩٣٤ ، وهذه
السنوات الخمس لم تكن فترة مرض الشاعر فحسب ، بل كانت فترة
نضجه وعبقريته التي عاشت مصاحبة لمرضه .

* * *

(١) أبو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شعره ، ص ٤٥ - ٥٣ .

الفصل الثالث

صاحب شخصيته

١ - التشائم

لمل أهم سمة تغلب على الشابي هي سمة التشائم والحزن ، الذي طالما
عمر قلبه ، وخالط نفسه ، حتى في اللحظات القليلة التي كان يستشعر فيها
لذة الحياة ، فأنت تجده يهكي دائما ، وأنا ضحك ، اختلطت دموع حزنه ،
مع دموع سروره . ولكن من اين جاءه الحزن ؟

لقد اجتمعت على الشابي اسباب عدة أدت قلبه ، وأوجعت نفسه ،
لمل أهمها موت والده ، وكانت هذه اول مصيبة تعلق بنفسه وقد ظهر
ذلك في كثير من الرسائل التي كان يبعث فيها احزانه لنفر من اصدقائه
أو في الخواطر التي كان يكتبها كلما رفرفت روح ابيه حوله ومن ذلك :

"ليس لدي ما اكتبه عن نهاري هذا ، وليلي خير لي ان اذهب الى
فراشي وأنام لانى ولكنني ادرى انني لا أنام الا وبأجفاني خيالات
الدموع وأشباح الأسى ، سأوى الى فراشي ، وستجاذبني الاحلام الشخصية
المزعجة ، الذكريات الالهية الدائمة ، ذكريات الامل الضائع والقلب الصرع
سأرى أبي آه ! نعم ذلك الاب الذي شق له النار قبره ، وسوا التراب
عليه ، وبقيت بعده ألم وألذ وأسر وأحزن ! أجل سأراه كما قد رأيته
في ليالي الكثيرة الخالية حينما ينطفئ السراج ويشمل الغرفة ظلام
الدجى .

أراه على فراش المرض طريحاً يتأوه ، وعيناه متألقتين يومئذ الحمى
الليم ، وأراه وهو في حالة ساكنه هادئه يجاذبني في شؤون كثيرة

بصوت عادي مطمئن ، وأراه وقد اشتدت عليه وضأة الداء ، وأصبح بمعالج
ألم الموت ونزاع الحياة ، والطبيب يفحصه ويحقنه بأدوية كثيرة ، ثم يخرج
يائسا مخفيا بأسه عني ، أنا المسكين الصغير . وأراه وقد شمله الموت
براحته فأصبح متزن النفس ، تخالسه في حلم النائم المطمئن ، والنساء
يبكين بقلب الليل ، ويملأن فجاج الانشق برنات النباحة ، وأنا كالظائر
الذي يح من الحزن والنحيب ، طورا أقف عند رأسه واخرى عند رجله ،
واخرى عن يمينه واخرى من شماله ، وبهميني هذه أجرعه من حين
لآخر جرعا من الماء ، بمازجها دمي المنهمل وتكاد تريقها مسرات
تسيحي ، ثم رأيت التفت الي " وأقف قلبي ، فحسبته يرنو الي فاقتربت
منه قائلا : " أبي أبي ، ماذا تريد ؟ ولكن آه يا قلبي لقد كانت تلك
نظرة الموت وأنا لا ادري ، أنا الطفل الصغير الذي لا يعرف مواقف الموت
حسبتهما نظرات الحياة ... (١)

هذه بعض خواطره ، تظهر مدى انزعاجه وحزنه وأرقه وان اعم
ما يجلب الانتباه فيها قوله اكثر من مره - أنا المسكين الصغير - أنا الطفل
الصغير - فإذا كنا علمنا ان الشابي قد ولد عام ١٩٠٩ ، وان والده
توفي عام ١٩٢٦ ، نرى ان الشابي كان قد بلغ المشيخنة وشبه وفاة والده ،
ولكن مصر على انه لا زال طفلا صغيرا مسكينا ، لقد عزمته الاحداث ،
فتصاغر امام نفسه ، أولم تمركه التجارب ، فهزم امام اول تجربته ، لقد
بكى الشابي بكاء اعترف انه بكاء نساء " مات أبي وظلمت انتحب وأنسج
وأبكي بكاء النساء " ...

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته شعره ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦

قد تكون هذه الحادثة هي التي فجرت الحزن في نفس الشاعر ثم
توالى الاحداث لتضيف حزنا على حزن ، وان بها تطبع نفسه بالسواد .
ثم فجع الشاعر بحبيبته ، ماتت وهي برعم لم يفتح ، ماتت وعسى
يشتاق ان ينضم بظلمها ، فجرت في حناياه بواعث العذاب ، وانطوى
قلبه على أسى لا سهيل فيه الى عزاء ، وأصبح عدوه الموت ، يجد فيه
وحشة وهولا وفراغا واكتئابا ، استمع اليه يقول :

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة
واليم قد أمت كأعماق الكهوف الواجمة
قد كان لي ما بين احلامي الجميلة جدول
يجرى به ماء المحبة طامرا يتسلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه في مهجتي
أجفان فاتنة ارتبها الحياة لشقوتي
أجفان فاتنة تراءت لي على فجر الشهاب
كمروسة من غائيات الشمر في شفق السحاب
ثم اختفت خلف السماء وراء هاتيك الغيم
حيث المذاري الخالدا تهمس ما بين النجم
ثم اختفت أواه ! طائفة بأجنحة المنسون
نحو السماء وعا انا في الارض تمثال الشجون (١)

وفي قصيدة - مأتى حب - يلمح على قلبه بالمزيد من الكاء ، لان
حبيبته ماتت ، ويلمح على عنقه ان تذرف الدمع مدرارا لتغسل جدث الحبيبة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٦٩ .

يقول :

مات من تهوى ، وهذا اللحد قد ضم الحبيب
فأبك يا قلب بما فيك من الحزن المذهب
أبك يا قلب وحيد
ذل قلبي
مات حبي
فأذرفي يا قلة الليل ، الدارى عسبرات
حول حبي ، فهو قد ودع آفاق الحياة
بمد أن ذاق اللهب
واندبهه
واغسله
بدموع الفجر ، من اكواب زهر الزنبق
وادفنيه بحلال ، في ضفك الشفق
ليرى روح الحبيب (١)

فإذا كان أبو القاسم الشابي ، قد سئم الحياة وقلاعها ، فما ذاك
إلا بسبب فقدته من أحب ، وأنه حين بكى لم يبك مجدا اثملا ضاع ،
أو عمرا تصرم ، إنما يبكي حبا ، كان يملأ عليه حياته .

لست يا أمي أبكيك لمجد أو لجلاء
فأنا احتقر المجد وأوهام الحياة
أو لعمر ، بلغت منه الليالي منتهاها

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٢١ .

وتلاشتني خضم الزمن الطافي قواه .
 فأنا ما زلت في فجر شبابي وضحاياه
 انما ابكيك للحب الذي كان بهـياه
 يملأ الدنيا فأنني سرت في الدنيا أراه
 فانا ما لاح فجر كان في الفجر سناه
 واذا ما غرد طير كان في الشد وحده
 واذا ما ضاع عطر كان في العطر شذاه
 واذا ما رف زهر كان في الزهر صباه
 فهو في الكون جمال يملك الانق ضياه
 عبقري البحر مراح وديع في سماه
 ينسج الاحلام في قلبي بأشواق الحياه (١)

احب الشابي وتغاني في حبه ، رأى ان القسرام أسمى حبة يهبها الله
 للشاعر ، وماذا يكون الامر لو نضب معين الحب ، وجف ورده ، فما الحياة
 الا انفاس الحب ، وليست الا العانما منغوسه موقمه على قيثارته السحرية ،
 والحب في عرفه نجمة للألم للمدلج الساري في فياحب التلام . فاناذا
 احتجبت النجمة ، وتحطمت القيثارة ، وجف الورد ، بكى ابو القاسم وتألم .

ثم فجع ابو القاسم بقلبه الذي احابه الميؤ المستعصي وهو في ريمان
 الشباب وميمية الصبا ، فشكا هذا الداء الذي استقر في قلبه ، وأقضى مضجعه ،
 وهدد حياته ، لم ينس ابو القاسم هذا الداء الذي يصارعه ويسير به
 سريعا الى غلام الفناء ، فكان يتشبه بالحياة ، ويود لو يرتشف كأسه
 منها ، كما يرتشف غيره ممن عم في شل عصره ، ونراه يشكو الـ
 الشمر هذه الصلة .

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١١٧ ، ١١٨ .
 ٤٥ / ٠ ٠ ٠

يا شمر قلبي مثلما تدري شقي مظلوم
فيه الجراح النجل يقدر من مغاوره الدم
جمدت على شفته ارزاء الحياة المأبوسة
فهو التعمير به مرارات القلوب البائسة
ابدا ينسوح بحرقه بين الاماني الهاوية
كالهبل الفريد ما بين الزعمور الذائبة

ولكنه يعزى قلبه ، ويطلب منه الصمود امام مشكلات الحياة يقول :

يا قلب لا تسخط على الايام فالزهر الهمديع
يصفي لصباحات العواصف قبل انغام الربيع
يا قلب لا تنزع بشوك المأس من بين الزعمور
ف وراء آلام الحياة عذوبة الالم الجسور (١)

وعكذا نجد ان علة الشاعر كانت هي الاخرى من وراء تشاؤمه ، وان
اعصابه في قلبه كانت من اهم اسباب عزوفه عن الحياة والناس ، فالرجل
المريض الجسم غالبا ما يكون مريض الاعصاب ، فيشور لكل شيء ، ويحتد لاثقه
الاستجاب ، وقد يكون هذا المرض او النقص الطبيعي في الشخص سببا في ان
يجعله يضيّق بالحياة بل ويكرهها ، فالمرض أو النقص الطبيعي ثم الاحساس
بهذا النقص او الشعور والتفكير في ذلك المرض ، هما اللذان يتسلطان على
الانسان ، وهما يستطعيان ان يخلقا من الهادئ الرزين انسانا شائسا
تسردا ، هذه الثورة وهذا التمرد قد يظهران في القول ، كما يظهران في
العمل ، فليس غريبا ان يضيّق الشابي بالناس وان يتبرم بالحياة ، بل ليس

(١) ابو القاسم الشابي ، اظاني الحياة ، ص ٣٥ .

كثيرا على شاعر رقيق الاحساس ، يشعر في قرارة نفسه بصا به ويفكر فيه دائما ، ليس كثيرا على شاعر وعب شاعرية خصبة كالشابي برقب اقول نجمه شيئا فشيئا ان ينظر الى الجانب الاسود في الحياة ، فاستمع اليه يخاطب حبيبته :

فافهمي الناس انما الناس خلق مفسد في الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليل فربها في اهل هذا الوجود (١)

ولعل من الاسباب التي ساعدت على اذكاء نار الحزن في نفسه ، هو الحال السيئ التي كان يعيشها الشعب التونسي تحت ظلال الخسوف والذل والهوان التي كان يسومه اياها المستعمر الفرنسي ، حاول الشاعر ان يثبت المزمع في النفوس فدعا الى قارعة الاحتلال ، ومحاربة التخلف والرجعية ، ولكن كلماته ذهبت ادراج الريح ، بل انه عوجم هو قبل ان يهاجم التخلف ، واتهم بالمروق والخروج على المجتمع .

بالاضافة لكل ما تقدم مما يبعث الاسى والحزن في النفوس ، كان للشاعر نفس حساسة ، تعمل فيها الاحداث عملها ، وتحفل بحقير الامور وعظيما .

واليوم احيا مزهق الاعصاب ، مشبوب الشمر
متأجج الاحساس ، احفل بالعظيم وبالحقير (٢)
تمشي على قلبي الحياة ، ومزحف الكمون الكبير
هذا مصيري يا بني الدنيا فما اشقى المصير

ويسرى احد النقاد ان شعور الشابي بالامتياز قد اوجعه ان لا صواب الا في جانبه ، وانه الوحيد البصير بمعاني الحياة ، فانتهى الى

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

الكفر يحاضر الانسانية وماضيها ومستقبلها ، وانكار قيمة الحياة (١)

وكان الشابي برعافة حسه ، وصدق تحمسه لمشاعر الناس من حوله
يتألم مع كل ذي ألم ، فهو يباك مع اليتيم ، مع الأم التي فقدت ابنها ، مع
الفقير المعدم ، لم ير الشابي في الحياة سوى المصائب ، الموت ، الفقر ،
الساكنات ، كأنه لم ير اشراقاً الدنيا ، وانها تعطي وتأخذ ، وتمنع وتمنع ،
لم ينظر الى الموت نظرة موضوعية على انه النهاية الحتمية لكل حيي نباتاً
كان أم حيواناً أم انساناً .

كم بقلب الظلام من انه تهفو لخصات عيبة ابتسام
ونشيج مضم من فتاة انهضتها قوارع الایسام
ونواح يفيض من قلب ام فجعت في وحيدها البسام
وانين من معدم ذي سقام ، غصة الدهر بالخطوب الجسام (٢)

وفي الابيات التالية يجأر الشاعر بالشكوى الى الله ، مبيناً ما انتابه
من احداث وما عرا قلبه من آلام :

ما له الوجود ، هذه جراح في فؤادي ، تشكو اليك الدواهي
انت انشأتني فيها بنفسي بين قومي في نشوتي وانتباهي
انت عذبتني بدقة حسي وتعقبتني بكسل الدواهي
بالاسى بالسقام بالهم بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتساهي

(١) خليفه محمد التليبي ، الشابي وجبران ، قال جاء في كتاب ابو القاسم محمد كرو -
دراسات عن الشابي - دار الضرب العربي ، تونس ، ص ١٠٤ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٧٣ ، ٧٤ . ٤٨ / ٠٠٠

بالمنايا تفتال اشبهن اماني وتذوى عجاجرى ، وشفاهي
واذا فتنة الحياة وسخر الكون ضرب من النمام الزاهي
يتلاش فوق الخضم : ويبقى اليم كالصهد مزهد الامـواء (١)

فالشاعر يلجأ الى الله شاكيا ما أصابه ، شكا وحدته وتنكر شعبه
له ، شكا اليه رقة احساسه ، فاذا هو كوعرة عبّاد الشمس ، يتأثر بكل
ما في جوه المادى والمعنوى ، مهما كان المؤثر قويا او ضعيفا . شكا
الى الله المنايا التي تخطف اعز احبائه والسده ، وحببته ... وينتهي
بعد ذلك ليقرر ان فتنة الحياة وجمالها ليست الا كسحابة ممهف شد
ما تنقشع .

كره الشاهي واقع الناس لانه كان يحب الحياة حبا مثاليا وفيها
يحب الناس حبا خالصا سامها ، ويرنو الى الكون وما فيه بعين ملؤها
الشوق الصادق ، كره واقع الناس المؤلم ، كره فيهم الملق 'والزيف' ، بقدر
ما احب لهم الصدق والاخلاق ، ودعاهم الى الاخذ بأسباب القوة ، والحمد
عن التغلف والخور ، ولما لم تجد دعواه اننا صاغية ، بل لان دعواه
قبولت بالاستهجان والاتهام بالمروق ، نعى على الحياة اهلها ، وسئم منها
واتجه الى عالمه المثالي عالم ما وراء الطبيعة عالم الخلود والابدية .

ان من امنى الى صوت المنسون
وصدى الاجساد
لمس تستهويه الحسان الطهور
بين ازهار الربيع الساحرة

(١) ابو القاسم الشاهي ، اغاني الحياة ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

وابتسامات الحياة الأخيرة

عن جلال اللسه (١)

ويقول :

عجيب ان يفرح الناس في كهـ ن الليمالي يحزننها المشبوب
ان خمر الحياة وردية اللون ، ولكنها سسم القلوب

بالاضافة الى ما تقدم من دواعي الحزن التي عاشت في قلب الشاعر
يكن هناك سبب آخر ، هو تأثر الشاعر بقراءاته لكبار أدباء الرومانسيه
من امثال بودلير ، ودي موسين ، ولامارتين ، وهو جو ، فطالما قرأ
ترجمات لاشعارهم وانتاجهم الادبي في مجلة أبولو ، التي انتسب اليها ،
ونشر شعره فيها ، ومن المعروف عن هؤلاء الرومانسيين ، مفالاتهم في وصف
مشاعرهم ، وعم يظهرون مبالون الى الحزن والاسى ، والهروب من الواقع ،
وهم كذلك شديدوا الاحساس بذواتهم ، يشعرون بتفردهم ، وانهم يعيشون في
مجتمع لا يقدر نبوغهم ويعيقهم ٠٠٠ فهم تائهون يبحثون عن الحقيقة فلا
يجدونها :

يا صميم الحياة اني وحيد	مدلج تائه فأين شروقك ؟
يا صميم الحياة اني فؤاد	ضائع ظاسم فأين رحيبك ؟
يا صميم الحياة قد وجع الناي	وفام الفضاء فأين هزولك ؟
يا صميم الحياة اين اغانيك	فتحت النجم يصفى مشوقك ؟ (٢)

وفي قصيدته - صوت تائه - لا يرى في الحياة شيئاً يستحق ان يعيش
من اجله الانسان ، فأعراس الحياة مآتم ، وجناتها جحيم ، وشرابها

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٢ . ٥٠ / ٠٠٠

فاسد سم ، ومويقاها انين ٠٠٠ ففلاها وعجرها ونشد الحياة في عالم
سماوى تتحق في المسرة .

قضيت ادوار الحياة مفكرا	في الكائنات معذبا مهموما
فوجدت اعراس الوجود مائسا	ورأيت فردوس الزمان جحيما
وحضرت مائدة الحياة فلم اجد	الا شرابا آجنا مسوما
ونفضت اعماق الفضاء فلم اجد	الا سكونا متعبا محسوما
تتهجر الاعمار في جنباته	وتموت اشواق النفوس وجوما
ولست اوتار الدهور فلم تغض	الا انينا ، داما ، مكلوما
يتلو اقامع التماسه والاس	وبصير افراح الحياة هموما
شردت عن وطني السماوى الذى	ما كان يوما واجما غموما
شردت عن وطني الجميل ٠٠	أنا الشقي ، فعشت مشطور الغواد يتما
في غربة روحية ، ملمونة	اشواقها تنضي عطاشا هيمما
شردت للدينها ٠٠ وكل تائه	فيها يروع راحلا ومقيمما
يدعو الحياة ، فلا يجيب سوى الردى	لهدسه تحت التراب ريمما
وتظل سائرة كأن ققيدها	ما كان يوما صاحبها وحيمما
يا ايها السارى ! لقد طال السرى	حتام ترقب في الظلام نجومما
اتخال في الوادى البعيد المرتجى	حييات ! لن تلقى هناك مروما (١)

هكذا هم الشعراء الرومانسيون يفلسفون الامور ، وفق مشتهياتهم ، لا
يرجعون الى الواقع ولا يحتكمون الى العقل ، بل للمخاطبة وحدها . انظر
الى ابني القاسم يقول :

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨١ ، ٨٢ .

وتظل سائرة كأن تقبدها ما كان يوما صاحبها وحبيبها

يأخذ على الحياة وابناء الحياة سير قافلتهم • بعد ان يموت احدهم
وعلى يهد الشاعر ان تتمطل الحياة ، وان تقف عجلتها ، عند موت احده
ابنائها ؟

ويرى الشاعر الرومنسي ان الاقدار تحب ضده ، وان الرياح تجري بمالا
تشتهي سفنه ، وانه مظلوم سيء الطالع ، تلمسه الاقدار بأسواطها ، دون
ذنب جناه •

مالى تمذهني الحياة كما أننى خلقى فريب ؟
وتهد من قلبي الجميل ؟ فهل لقلبي من ذنوب ؟
واذا سألت لم الوجود ، وكله ثم مذنب ؟
قالت نواويس السماء قضت ، وما لك من عروب ؟
آه على قلبي ! وان شقيت كشقوته تسلوبا
انقش من الموج الوضي ، ومن نشيد المنديل
لم تقترن اثم الحياة وكان مأواها اللهميب
مهما تضاحكت الحياة فاننى ابدا كحبيب
اصغى لاجاع الكآبة ، والكآبة لا تجيب
في مهجتي تنأوه البلوى ، ويهتاج النحب
انى انا الروح الذى سيظل في الدنيا غريب
ويظل مضطلما باحزان الشبهة والعشيب (١)

(١) ابي القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٣ ، ٨٥ . ٥٢ / ٠٠٠

الرومانسيون امام واقعهم المر ، يحاولون ان يعرفوا اسرار الطبيعة والحياة ، ولكنهم لا يصلون الى الحقيقة ، بل يثيرون الاسئلة ولا يعثرون على اجابات لها ، فتبقى الحقيقة غائمة دونهم ، لا يستطيعون لها ادراكا امام كل هذا ينسحبون من الحياة انسحاب المهزوم ، يفتنون لذاتهم التي يشعرون بتفرد لها وعقيدتها ، وهذه الذاتية الرومانتيكية لها خصائص تتجلى على الاخص في عدم الرضا بالحياة في عصرهم ، وفي القلق امام عالمهم وما يمج به من احداث وفي الحزن الثالب على انفسهم في كل حال دون ان يجدوا له سببا ، وهذه الحال ناشئة من عدم توازن القوى النفسية عند هؤلاء الذين طغى الشعور عليهم بذات انفسهم طغيانا دفعهم دفعا الى التفتة على كل ما هو موجود ، والتطلع الى ما لا يستطيعون تحديده ، خاصة في عالم السياسة والخلق والادب .

ولهذا يعتصم الرومانتيكيون من الواقع بالانطواء على انفسهم ونشدان مثال لهم ، فتتسع الهوة بينهم وبين الواقع وما ينشدون من مثال . . . ويطنس عليهم الشعور الفردي على الرغم من انه سيظل دائرا حول مصان انسانية عامه ، من شأنها ان تجيب هؤلاء الرومانتيكيين الهنا ، وتقرهم الى نفوسنا (١)

ومن هذا قول ابي القاسم الشابي داعيا اعتزال حياة الناس :

وان اردت قضاء العيش في دعة شعيرة لا يفشى صفوها ندم
فاترك الى الناس دنياهم وضجتهم وما بنوا لنظام العيش او رسموا
واجعل حياتك دوحا مزهرا نهرا في عزلة الغاب ينمو ثم ينصلدم

(١) محمد فتحي غلال ، الرومانتيكية ، دار نهضة مصر للصح ، دون تاريخ ، ص ٤٩ .

وأجمل ليلالك احلاما مفردة ان الحياة وما تدرى به حلم (١)

ثم يقول :

أود ان احيا بفكرة شاعر فأرى الوجود يضحك عن احلامي
الا اذا قطعت اسبابي مع الدنيا وعشت لوحديتي وظلامي
في القاب في الجبل البعيد عن الورى حيث الضيعة والجمال الشامي
واعيش عيشة زائد متنك ما ان تدنس الحياة ندام
هجر الجماعة للجبال ، تورعا عنها ، وعن بطش الحياة الدامي (٢)

من كل ما فات نلاحظ ان الشابي شاعر الحزن والاسى ، فلقارئ في ديوانه يجد كلمات الحزن وصور الاسى تحصر الديوان ، فقد احصت السيدة نعمات احمد فؤاد الالفاظ التي تضمنت معاني المذابح في ديوانه فوجدتها ١١٨ لفظة من مثل ، شجون ، شقاء ، ابتساس ، نواشب ، الهلها ، الرزايا ، الارعاق ، لظى الهأس ، الهول ، الهول ، ضجيج ، كمين ، غريب ، انين ، حزين ، حنين ، اعتكاف ، حيران ، النقيب ٠٠٠ الخ . وان ديوانه احتوى على ٦٢ لفظا من اسماء الدعر . كاللهالي ، الدعر ، الايلم ، الزمان ٠٠٠ الخ .

اما الجن فقد ظهرت في ديوانه خمس مرات . والدياجير ، والظلماء واخواتها تتوالى تباعا في ثنايا القصيد ، ولقد ضاق الشاعر نفسه بالظلام وتهاوله فاشرب الى النور ، وهتف به شدة وتسع عشرة مرة مرودا هذه الالفاظ : شعله ، نور ، الفجر ، الضياء ، شعاع ، لألاء الصباح ، الضحى (٣)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٣) نعمات احمد فؤاد ، شعب شاعر ، ابو القاسم الشابي ، مؤسسة الخانجي بصر ١٦٥٨ ،

وحاول الأستاذ شوقي ضيف أن يقف على اسباب حزن الشاعر فقال
 " كان احساس ابي القاسم الشابي حادا ، وجملته حدته محبا للحياة صبا
 بها ، وشعر برؤوس افاع تمتد اليه في طريقه ، فتغنمه من المير بسل
 ترده الى داره ، ان لم يكن الى فراش علة ، فرجع محزوننا بجراحه الى
 والكتابة قد ملأت نفسه ، وملأها ايضا الاحساس الدقيق بالكارثة ، وصا
 ينتظر من موت عاجل محتوم .

ولم يجد امامه ما يثير لواجه سوى ناي شعره ، فأخذ يشدو عليه
 اغاني مشجيه ، نظمها والدموع تنهمل من عينيه ، وعي لذلك تعد اشجى
 اغانيها في العصر الحديث ، لان صاحبها يلها بدموعه وهو يكتبها ، ولانها
 تصور الما حقيقيا ، بل لان صاحب هذا الالم كان حاد الحس ، فمقط لا
 على الالفاظ التي تمثل ألمه ، وانما على الابر التي تلسع ، وحس الابر في
 نيران قلبه ، فاصبحت تكوى وتلدغ . (١)

ويرى الأستاذ محمد الحليمي ان ابا القاسم مرنى تشاؤه في اصور
 ثلاثة ، الصور الاول : عبود التشائم القاتم ، وفي هذه المدة كان ينحو
 نحو جبران ويكتب على مطالعة المعري انكباها كليا ، فلما نظم اول اشعاره ،
 كان مفرطا في اليأس والتشائم ، وكان هذا التشائم من النوع السهل الرخيص ،
 الذي يشاركه فيه كثير من صفار الشعراء وقليديهم ، فهو تشائم لا يعرف
 مبعثه ، ولا الداعي اليه ، وعلة تردده وسبب وجوده .

الصور الثاني : نراه متشائما ، ولكن تشاؤه في هذه المرة مصحوب
 بالتفصيل ، وحزنه مبعثه الحيرة ، وكآبته تعتمد على استعرا تسأؤله

(١) شوقي ضيف ، دراجات في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، بدون تاريخ ،

الطبعة الثالثة ، ص ١٤٤ .

وحيرته وتطلعه الى البقيين .

الطور الثالث : يبدأ من اضيافه في عين دراعم ومن هنا اتجه شعره وجهة جديدة (١) .

ولكن الاستاذ الحلوي لم يوضح عنه الوجهة الجديدة ، وارى ان الشابي في حيرته وتساؤلاته لم يصل الى فلسفة حقيقية يملل بها سر هذا التشاؤم ، بل بقي حائرا .

اما الاستاذ ابو القاسم محمد بدرى فيرى ان نظرة الشاعر للحياة هي التي عكست على نفسه الصورة القائمة المزوجة بحلو ومر ، وشهد وصاب ، ولا مزية في ان فلسفة الشابي في كل الوان شعره مستمدة من احساسه بذاته القلقه ، ونفسه الشائرة على ما في الكون من نظم وأوضاع ، وقد يجيب الشاعر احيانا على حيرته بما يوضح هذا الاحساس وبين عنه النظرة القائمة الحزينة (٢)

ما هذه الدنيا الكهبة ويلها حقت عليها لعنة الاحقصاب
الفجر يولد باسم متهدلا في الكون بين نجمة وضباب

اما الاستاذ عمر فرخ فيرى الشابي شاعرا متشاؤما عابسا يحاول ان يزين شعره احيانا بشيء من روح الامل والتفاؤل ، الا انه كان مقبلا بين الامل والبأس ، وكان البأس عليه اغلب . (٣)

(١) محمد الحلوي ، مع الشابي ، سلسلة كتاب البحث ، تونس ١٩٥٥ ، ص ٧٨ .

(٢) ابو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، ص ٢٠ .

(٣) عمر فرخ : شاعران معاصران ، ابراهيم طوقان ، ابو القاسم الشابي ، طبعه اولى ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ١٦٠ .

ولكن عدل كان أبو القاسم دائم التشاؤم ؟ ألم تعمّر الفرحة قلبه
قط ؟ هل خلا ديوانه من قصائد غنى فيها للحياة ؟

إذا كان الشابي كثير الهم بالحياة ، إلا أنه مسبق عليها دؤوب على حسب
أعطى ، إذا عسر اليأس مره ، يماوده الفأل مرات ، يوقن أن الظلام محققة
أشراق ، وأن الليل لا بد أن يحويه تنفس الصباح .

إن ذا عسر ظلمة غير أنني من وراء الظلام شمت صباحه
ضيق الدمر مجد شعبي ، ولكن سترد الحياة يوماً وشاحه

وهو يدعو إلى الأقبال على الحياة والدأب في السعي من أجل النهوض
بها ، يقول :

ولا تنهض وسرف في سبيل الحياة ، فمن نيام لم تنتظره الحياة	
ولا تخشع وراء التلاع	فعاثم إلا الضحى في عباء
والا ربيع الوجود الضمير	يطرز بالورد ضافى رداء
والا ارج الزعور المصباح	ورقش الأشعة بين المباء
والا حمام المروج الانيق	يفرد منطلقاً في غنماء
إلى النور فالنور عذب جميل	إلى النور فالنور ظلّ الإله (١)

ويدعو الشاعر إلى التعلق بالحياة والعمل بجهد في سبيلها ، فهي
ليست أصلاً إلا للمكافحين في سبيلها المنافحين عنها .

ومن لم يعانقه شوق الحياة	تخسر في جوعنا واندر
فويل لمن لم تشقه الحياة	من صفة الصدم المنتصر

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٨٨ .

كذلك قالت لي الكائنات وحادثني روحها المستتر
وقالت لي الارض لما سألت: "أيا أم نسل تكرميين البشر"
"ابارك في الناس اعمل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر"
"والمن من لا يماشي الزمان ، ويقنع بالميشر عيش الحجر"

واذا كان قد دعا الى الطموح وركوب الخطر في سبيل الرقي بالحياة
والارتفاع بها ، فانه يدعو ان الحياة لا تستقيم من ابنائها الاكل من ملاء
النشاط نواده ، وعمر قلبه بحبها .

هو الكون حي يحب الحياة ، ويحتقر الميت ، مهما كبر
فلا الافق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزعر
ولولا امومة قلبي الرؤم ، لما ضمت الميت تلك الحفر
فويل لمن لم تشقه الحياة ، من لعنة العدم المنتصر

يمؤمن الشابي بقوانين الحياة ، وان البقاء للافضل ، وان الحياة دائمة
المسير ، لا تنتظر المتخلفين المتعاسين .

ورن نشيد الحياة المقدس في هيكمل ، حالم ، قد سحر
واعلن في الكون : ان الطموح ، لهيب الحياة ، وروح الظفر
اذا طاحت للحياة النفوس فلا بد ان يستجيب القدر (١)

احب ابو القاسم الحياة أحب لذائذها ، احب فيها المرأة الجميلة التي
تبلى قلبه ، واقامت في نفسه تسمع وجهه ، انها ليست كالحياة ولكن
الحياة نفسها .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٢٠ .
٥٨ / ٠٠٠

انت انت الحياة في قدسها السامي ، وفي سحرها الشجي العريد .
انت انت الحياة ، في رقة الفجر ، في رونق الربيع الوليد
انت انت الحياة كل اوان في رواء من الشهاب الجديد
انت انت الحياة فيك وفي عينيك آيات سحرها الممدود (١)

واستمع اليه بخاطب محبوبته :

ظهرى يا شقيقة الروح ثمرى بلهب الحياة ، بل قبليني
ان نار الحياة والكوش المنشود في ثرك الشهي الحزين
فهو كأس سحرية لرحيق الخلد قد صاغها اله الفنون
قبليني واسكرى ثمرى الصادى وقلبي ، وفتنتي وجنوني
آه ما اعذب الفرام واحلى رنة اللثم في خشوع المكون (٢)

ولكن بعد ان عرضنا لاشعار الشابي الهارب من الحياة المتشائم منها ،
وتلك التي يقبل فيها على الحياة ، ويدعو للسمي حيثما من اجل النهوض
بها ، عمل يعني ذلك تناقض ابي القاسم ؟؟ وانه يمشر لحظته ؟؟ ان
سرته لحظة مدحها ، وان ساءته عنهم بكاء وشكاها ؟؟

لست من القائلين بذلك ، بل ارى ان حب الحياة عند ابي القاسم هو
الامل ، لانه طالما غناها ، وطالما دعا شمه ان ينهضوا بها ، وان جاءت
شكواه من الحياة مره ، فعما ذلك الا لانه يحرس عليها ، الا يتعنى احدنا
الموت في احدى ساعات ضنكه وسورة فضبه ؟ ولكن لا يلبيث ان يتخذ من
ذلك حافزا ، يدفعه للتخلص مما عوفيه ، اما بالعداواة من علة اصابتة ،

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

او متغلط من كهوة المتبهه ، كل ذلك لانه يحب الحياة ويكره الصدم ،
 هكذا كان ابو القاسم احب الحياة لشعبه ولنفسه ، فلما لم يصغ له الشعب
 ولما لم تبرأ نفسه من آلامها ، سئم الحياة من حيث احبها ، ولكنه كان
 يقيم السلم ، ويحارب اليأس ، لهماود العمل من جديد ، ويكرر النداء
 بضرورة العمل الجاد من اجل الحياة والسوق بها ، مات ابو القاسم بمنزلة
 اميا قلبه ، ولكنه مات ونفي قلبه امل ان يحيا الشعب الذي ربط حياته
 بالارادة الجبارة التي ستزعم حتى القدر على الخضوع .

• كان قلبه العليل واسما جيبا راقويا .

ما قلب كم فيك من كون قد اتقدت	فيه الشمس وهاشت فسوقه الامم
ما قلب انك كون عد عشر عجب	ان يسأل الناس عن آفاته يجعوا
كانك الابد العجول . . . قد عجزت	عنك النهى ، واكهرت حولك الظلم
تضي الحياة بماضيها وحاضرها	وتد عب الشمس والشرطان والقسم
وانت انت الخضم الرحب لانفرج	يقن على سحاح الطافي ولا الم
تهلوا الحياة فتليها وتخلعها	وتتجد حياة ما لها قدم
وانت انت شباب خالد نضمر	مثل الظهيرة ، لا شيب ولا عزم (١)

• لم يكره الشامي الحياة فهي موسيقى يطرب لها .

احبني لموسيقى الحياة ووجيها	وانيب روح الكون في انشائي
واسمع للصوت الالهي ، الذي	يحيي قلبي ميت الاعداء
النور في قلبي وبين جوانحي	فعلام اخشى السير في الظلماء (٢)

(١) ابو القاسم الشامي ، اغاني الحياة ، ص ١٥٦ ، ١٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٩ ، ١٨٠ .

واحسب الشابي الحياة حتى صرح بنفسه انه عبد لها ، وان
التشائم من الحياة ورفضها هو ضرب من الهذيان والبهتان .

ما كنت احسب بعد موتك يا ابي	ومشاعري عماء بالاحزان
اني مأظماً للحياة واحتسي من	كأسها المتوهج النشوان
واعود للدنيا بقلب خافق	للحب والانفراح والاحسان
ولكل ما في الكون من سور المنى	وغرائب الاعواء والاشجان
حتى تحركت السنون واقبلت	فتن الحياة بسحرها الفشان
فاذا انا طفل الحياة المنتشي	شوقا الى الاضواء والالوان
واذا التشائم بالحياة ورفضها	ضرب من البهتان والهذيان
ان ابن آدم في قرارة نفسه	عبد الحياة الصادق الايمان (١)

وتكاد تدعش عندما تسمع الى ابي القاسم وهو يحدثك عن
(السعادة) وعن مواصفاتها ، وكيفية تحقيقها ، فهو يرى ان السعادة لا
تتأتى لفرد الا اذا ابتسم امام كل مشكلة ، وضحك لكل معضلة ، فالسعادة
بמידة التحقيق ، ولا يمكن ان يحياها انسان الا بالابتسام للحياة سراتها
واحزانها .

خذ الحياة كما جاءتك مهتما	في كفها ، الفار او في كفها العدم
وارقص على الورد والاشواك مهذا	فنت لك الطير ، او فنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضى	والجم شعورك فيها انها صمم
فمن تألم لم ترحم مضاعته	ومن تجلد لم تهزأ به القمم
هذي سعادة دنيانا فكن رجلا	ان شئت - ابد الابد - بيتهم (٢)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

ابو القاسم الشابي الذي علمنا كيف نبكي ، يعلمنا كيف نضحك ،
يسل كيف نسعد ...

ولكن رومنتيته لا تفارقه حتى وهو يعلمنا كيف نسعد فهو
يدعونا بالاضافة الى ما تقدم ان نهجر الناس ، نهجر نظامهم الاجتماعي ،
نهجر نظامهم الحضارى ، لنسكن الشاب ، ونهتمد عنهم .

وان اردت قضاء العيش في دعة شمعة لا ينفشي صفوها نسدم
فاترك الى الناس دنياهم ونهجتهم وما بنوا لنظام العيش اورسما
واجعل حياتك دوحا مزهرا نظرا في عزلة الشاب ينمو ثم ينعدم
واجعل لبايك احلاما مخرقة ان الحياة وما تدوى به ظلم (١)

وبعد فنحن الان امام شاعر يمس فأبكتنا ، وحزن فأحزننا ،
ضحك للحياة وغنى لها ، وعلمنا كيف يمكن ان نعيش فيها بتحديدنا ،
علمنا كيف نسعد وما هي سبل السعادة ، فهل نحن امام شخصية
متناقضة ؟

أيهما آمل في نفسية الشابي حبه للحياة ، ام بغضه لها ،
لعل فيما قاله الدكتور شوقي ضيف ما يجيب على تساؤلنا " واكبر
الظن ان ليس هذا الحب الذي يرثيه مع قلبه الا حبه للحياة ، وما
يتألق في بصره من جمالها الذي يستطع على الاشياء والاشخاص مسن
حوله ، وانه ليريد ان يعانق هذا الجمال بكل جوارحه ، فترده يد
سوداء ، تخرج له من الظلام ، تنهيه ان يقترب فيبكي ويئن ، ويشعر

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٥١ .

كأن الدنيا بكل ما فيها من سعادة وجمال وفتنة قد فُتت من تحت
بصره ، ولم يعد له الا كهف الموت يتمشربين صخورها ، وبالموت الحياة
حين يضطج الموضع على قلب شاعر وصدرة ، فتسود الدنيا في عينيه ،
ولا يجد ما يفرج عن كربته ، او يكشف عن غمته ، حتى امانيه فانها
تهوى متساقطة ، تساقط الشهب ، وماذا بقي للشابي من دنياه ؟
انه لم يبق له الا الظلام الموحش والا الرؤى المزعجة والاشباح المخيفه
أشباح الموت القاسي القاسم الذي لا يرحم . (١)

٢ - فلسفة الموت عند ابي القاسم الشابي :

المدارس لديوان الشابي يجد العديد من القصائد يرحب فيها
الشاعر بالموت ويناجيه ، وكأن رباطاً من الصداقة متين يربط بسنين
الاثنين ، ولكن نظرة متألمة تظهر لنا العكس ، لقد كان الموت عند
ابي القاسم الالسد ، يخشاه ويهرب منه .

يا موت ماذا تبتغي مني وقد مزقت صدري
ماذا تنود وقد سودت بالاحزان فسكروى
يا موت قد شاع الفؤاد ، واقفرت عروصات صدري
وفدت امشي مطرقة من ضلوع ما اقلت فكري
يا موت نفسي ملت الدنيا ، فهل لم يأت دورى (٢)

فالموت هو السبب في كل ما يعاني ، وهو يتمجله لا لأنه يحبه ،

(١) شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

بل لانه عذبه فزهده بالحياة . . . الموت عمو الذي اودى بوالسده ،
ثم اتبعه بمحبوبته . استمع اليه يقول :

كنّا كزوجي طائر ، غي دوحه الحب الامين
نقلوا ناسيد المنى بين الخمائل والفسون
مفردين مع البلايل في السهول وفي الحزون
ملا الهوى كأس الحياة لنا ، وشمعها الفنون
حتى اذا كدنا نرشف خمرها ، غصيب المنون
وأعصاب بالحب الوديع ، فودع العشر الامين
وشدا بلحن الموت في الافق الحزين الستكين
ثم اختفى خلف الغيم ، كأنه الطيف الحزين (١)

الم يكن الموت يضارده عو نفسه ، بعد ان أدهى المرز قلبه ،
فالموت بلا شك سيكون العدو الاول للشابي ، ولكن لم نلجى الشاعر
الموت وتفننى به ، لم رمز اليه بالصباح ؟ ، البست اشراقة الصباح
منقبة اظلامه الليل ، عد الليل بحلكنه عو رمز لحياة الشاعر ، وعد
الصباح باشراقتيه ، عو الموت الذي يبدد سأم الحياة ، كما يبدد
النور الظلمة ؟

استمع اليه يقول :

يا بني أمي	تري ابن الصباح
أوراء البحر	أم خلف الوجوه
يا بني أمي	تري ابن الصباح

(١) آمنوا القاص الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٤ .

ويظهر رمزه للصباح بالموت نفسي قصيدته الى الموت :

الى الموت يا ابن الحياة التعميس	ففي الموت صوت الحياة الرخيم
الى الموت ان عذبتك الدهور	ففي الموت قلب الدهور الرحيم
الى الموت فالموت روح جميل	يرفرف من فوق تلك القيسم
الى الموت لا تخش اعماقه	ففيها ضياء السماء الوديع
هو الموت طيف خلود جميل	ونصف الحياة الذي لا ينسج
هناك خلف الفضاء البعيد	يعيش المنون القوي السميع
يضم القلوب الى صدره	ليأسوا مضها من جسر
ويبحث فيها ربيع الحياة	ويمهجهما بالصباح القسج (١)

فالموت عند الشاعر هو الصباح الذي يبدد ظلمة الحياة ،
ويزيل ما اعتسورها من غم ومصائب .

الى الموت ان عذبتك الدهور ففي الموت قلب الدهور الرخيم
فهو ان ان رحب بالموت رحب به لان الدهر عذبه ، ووجد في
الموت القلب الرحيم .

ولما كان الموت شديد الصلة بالشاعر ، صلة عدا وبغضاء ،
صلة وحشر بفحشة ، كان لا بد ان يحاول الشاعر فهم كنهه ، على يجد
في تلك المعرفة ما يميزه . فأثار الشاعر اسئلة ، ووضع علامات
استفهام اسام قضايا تعرض لها العديد من فلاسفة الزمان وحكمائهم ،
ولكن هل استطاع الشابي ان يحصل على اجابة يعزى بها نفسه ،

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٧٦ .

ويحل لنا اللغز ؟

لغز

نحن نمشي ، وحولنا هاته الاكوان تمشي ، لكن لاية غاية ؟
نحن نشدو مع المصافير للشمس وهذا الربيع ينفخ نسايه
نحن نطلو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الروايه ؟
عكدا قلت للرياح فقالت "سل ضمير الوجود كيف البداية" ؟
وتغشى الضباب نفسي فصاحت في ملال : الى اين أشي ؟
قلت "سيرى مع الحياة" فقالت ما جنيتا ، ترى من الميرامس ؟
فتهاقت كالهشيم على الارض وناديت اين يا قلب رفشسي ؟
هاته علني اخذ ضريحني في سكون الدجى وادفن نفسي (١)

تساءل ابو القاسم عن نهاية رواية الحياة ، ولكنه قول بسؤال
عن كيفية البداية ، ولكن الشابي قد اعصابه ، ولم يجد جوابا
فأسرع ينادى نفسه لتحضير الرفش والممول ليخط ضريحها لها .

ولما لم يجد الشابي اجابة لسؤاله ، وبقي اللغز بدون حل ،
عاد ليهاجم القدر هجوما عنيفا ، وأي شيء يفيد الهجوم ، وليس هو
دليل عجز ؟

يا ليل ما تصنع النفس التي سكنت هذا الوجود ، ومن اعدائها القدر
فانما الموت ضرب من حبائله لا يفلت الخلق ما عاشوا فما النظر
عذا هو اللغز عماء وقدم على الخليفة وحش فاطك حذر

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .
٦٦ / ٠٠٠

قد كبل القدر الخاري فرائسه فما استطاعوا لها دفعا ، ولا حذروا
وخطأ أميهم ، كمي لا تشاهد ، عين ، فتعلم ما يأتي وما يذر
لا الموت ينقذهم من هول صولته ولا الحياة ، تساوى الناس والحجر
حار الساكنين وارتساعوا وأعجزهم ان يحذروه ، وهل يجديهم الحذر
قد ايقنوا انه لا شيء ينقذهم فاستسلموا لكون الرعب ، وانتظروا

لقد اقتنع الشاعر ان كنه الحياة سرٌّها معقد ، لا يمكن ان تصل
اليه نفسه ، استسلم الشاعر للقدر ، ولكنه استسلم لم يصدر عن يرد
اليقين ، وظمأنينة النفس ، فهو ان يودع الحياة يودعها ببيكاء وعويل
وعواشد ما يكون حرصا عليها .

وقهقه القدر الجبار سخريه بالكائنات ، تضاحك ايها القدر
تمشي الى العدم المحتوم باكية طوائف الخلق والاشكال والصور
وانت فوق الاس والموت مبتسم تنو الى الكون بيني ثم يندثر (١)

ولعل اكثر قصيدة تظهر فيها فلسفة الحياة والموت عند الشاعر
هي قصيدته - حديث القبرة - وهي حديث فلسفي ، مداره الحياة
والموت ، والخلود والكمال . قال الشاعر في تقديمه لقصيدته " في
ليلة مظلمة من ليالي الصيف ، خرج الشاعر بنفسه من القرية الصغيرة
النائمة في سفح الجبل ، وفي ذلك السكون الشامل ، والظلام المركم ،
اخذ يمشي بين اشجار الزيتون المزهرة في مسلك منفرد ، ثم اعتلى تلك
الربوة الصغيرة ، حيث كانت مدافن القرية ، وحيث ينال الموتى في
صمت الدهور .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

وبين القبور الخرساء الجاشئة تحت أضواء النجم ، حيث يتحدث
كل شيء بجلال الموت ، وتفاهة الحياة ، جلس الشاعر بأقدام متعبه ،
ونفس شائره ، واجفان قد اذهلتها الاحزان ، فطافت بنفسه الاحلام
والافكار والذكريات ، وتقلب امامه صور الموت وأمواج الحياة وتتابع
امامه رسم الايام الكثيرة ، ما نام منها في قلب الازل ، وما لم يزل
ينسو في احشاء الابد الكبير . وجاشت في قلبه عساته العصور
والخواطر عجت في صدره عيج الامواج الشائرة ، فألقاها الى الليل
في النشيد التالي (١)

اتفنى ابتسامات تلك الجفون ؟ ويخيم توهم تلك الخدود ؟
وتذوى وهيدات تلك الشفاه ؟ وتهوى الى الترب تلك النهود ؟
وينهد ذاك القوام الرشيق ؟ وينحل صدر ، بديع وجيد ؟
وتريد تلك الوجوه الصباح وقتنة ذاك الجمال الفريد (٢)

هذه الابيات تعكس رغبة الشاعر في الحياة وحبها ايها ، فهو
شفق عليها ان تنزل ، ترائق التي تتصلها الزائلة ، فهو يخشى زوال الابتسامة
المعذبة ، ويخاف فناء الخدود الجميلة ، ويفزع من ان تذوى الشفاه
الوردية ، والنهود العاجية ، بل هو يفرق من اندثار القوام الجميل .

وخشيته لم تقتصر على فناء المرأة الجميلة فحسب ، فهو يخشى زوال
الصباح المذبذب الجميل واندثار الشمس الدافئة ، وضوؤها المشرق ، يخشى
اندثار معالم الطبيعة الجميلة التي احبها ، بحارها ، وانهارها ،
رباعها ، بساكنها ، ورودها ، اعشابها .

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٤ ، ١٣٦ .

ويقضي صباح الحياة البديع ؟ وليل الوجود الرهيب العتيد
وشمس توشي رداء القمام ؟ وبدر يضيء ، وغيم يجود
وضوء يرمع موج الخدير ؟ وسحر يطرز تلك البرود
وبحر نسيح ، بعيد القرار يضح ويدهوى دوى الوليد (١)

وعو يقرر ان هذا الفناء الشامل الذي ينتظر الكون ، هو شيء
أعظم من ان تحمله النفوس ، ويتساءل لماذا لا يخلد الانسان ولماذا لا
تستمر الحياة .

كبير على النفس هذا العفاء وصعب على القلب هذا الهمود
وماذا على القدر المستمر لو استمرأ الناس ظمم الخلود
ولم يخفروا بالخراب المحيط ولم يفجموا في الحبيب البولود
ولم يسلكوا للخلود المرجى سبيل الردى ، وظلام اللحد
قدام الشيب ، وسحر الفرام وفن الربيع ، ولطف الورود (٢)

ويستمر الشاعر في تساؤلاته ، وتظل الحيرة تسربل قلبه ، ويظل
ضممه في الخلود يسيطر على نفسه ، ويمكك حسية ، " وكانت بين القبور
روح فيلسوف قديم مجهول جاءت تنزور جسمها الذي اصبح رملًا بآليته
في احشاء التراب ، فأشفقت على الشاعر المسكين من آلامه الروحية
وحيرته الظائمه ، فأرادت ان تعلمه الحكمة ، وتسكب في قلبه برد
البقين فتخاطبه بهاته الايات (٣)

تبرمت بالعيش خوف الفناء ولو دمت حيا سئمت الخلود
وعشت على الارض مثل الجبال جليلا رهيبا ، غريبا وحيد

(١) و (٢) و (٣) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

فلم ترتشف من رضاب الحياة	ولم تمطمح من رحيق الوجود
ولم تدرك ما فتنة الكائنات	وما سحر ذاك الربيع الوليد
وماذا يرجى ربيب الخلود	من الكون - وهو القيم الا بيد -
تأمل . . فان نظام الحياة	نظام دقيق ، بديع ، فريد
فما حبب العيش الا الفناء	ولا زانه غير خوف اللحد
ولولا شقاء الحياة الاليم	لما ادرك الناس معنى السعد
ومن لم يرعه قطوب الدياجير	لم يفتبط بالصباح الجديد (١)

هكذا قالت روح الفيلسوف للشاعر حاولت ان تقنعه ان الخلود يعني السأم وانه يعني الجمود ، جمود الجبال ، وان خلود النفس قاتل طموحها ، فمن استمتعتهما بالحياة ، فما احب الانسان الحياة وحرض عليها الا خوفه من اللحد ، فان تبدد هذا الخوف ، واضمأن الى استمرار الحياة ذهبت لذتها ، وان الانسان لا يستشعر معنى السعادة الا اذا عانى الخوف ، وشعر بالشقاء .

ولكن عمل اقتنع الشاعر بما قالت له روح الفيلسوف ؟ استمر يحاورها ويجادلها ، علّه يصل الى قناعه .

اذا لم يكن من لقاء المنايا	مناصر ، لمن حل هذا الوجود
فأى غناء لهذا الحياة	وهذا الصراع ، المنيق الشديد
وذاك الجمال الذي لا يمل	وتلك الاغاني ، وذاك النشيد
لماذا نمر بوادي الزمان	سراعاً ، ولكننا لا نعود
فنشرب من كل نبع شرابا	ومنه الرقيق ، ومنه الزهيد

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٦ ، ١٣٧

ومنه اللذيق ومنه الكريف ومنه المشيد ومنه المبيد
وكل - اذا ما سألنا الحياة - غريب لعمري بهذا الوجود
اتيناه من عالم لا نراء فرادى ، فما شأن هذى الحقدود
وما شأن هذا العداء العنيف وما شأن هذا الاخاء الودود (١)

يتساءل الشاعر ، ويقول اذا لم يكن من الموت بد ، فلمـ اذا
التكالب على هذه الدنيا ، لماذا الجرى وراء مسراتها ، لماذا الاقتتال
بين ابنائها ، بل لماذا تلك الصداقات التي تربط بين الناس ،
وكأنني بالشاعر وقد تجرع الحقيقة يود منا ان نعيش الحياة بسلبية ، لا
نهتم بتحير الاسور وصغيرها ، لا نهتم بمتع الحياة ومسراتها .

ولكن روح الفيلسوف تقول له :

خلقنا لنبلغ شأواً الكمال ونصبح اهلاً لمجد الخلود
ونكسب من عشرات الطريق قوى لا تهدأ بدأب الصعود
ومجدنا يكون لنا في الخلود اكابيل من رائعات السورود (٢)

كانت روح الفيلسوف اكثر ايجابية فأبلفته اننا هنا نحيا لنحاول
بلوغ الكمال نستحق الخلود ، خلود افعالنا لا خلود اجسامنا .

ولكن مع ذلك هل اقتنع الشاعر استمع اليه يقول "هو بالقبرة
يروب من الأرواح ، في طريقها الى العالم المجهول ، فطارت معها
روح الفيلسوف وخلفت عالم الشك والكتابة لابنائها البائسين وظل الشاعر
يردد بينه وبين نفسه :

خلقنا لنبلغ شأواً الكمال ونصبح اهلاً لمجد الخلود (٣)

(١) و (٢) و (٣) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٣٦ ، ١٤٠ .

ولكننا بمد كل ما نخدم لا زلنا أمام سؤال ملح ، يتطلب منا جوابا ،
هل كان أبو القاسم محبا للحياة مفضلا للموت ؟ أم انه كان كارهها
للحياة مريحا بالموت ؟ وقد وردت في ديوانه العديد من القصائد
يغض فيها الموت ، والعديد من القصائد يدعو فيها الى الموت .

الى الموت لا تخشى امماقه ففيها ضياء السماء الوديع
هو الموت طيف خلود جميل ونصف الحياة الذي لا ينسج

اختلف النقاد ممن تناولوا شعر الشابي بالدراسة والتحليل ، في
فلسفة الموت والحياة عنده فيرى بعضهم ان الشابي كان محبا للموت ،
لان مظاهر عشقه له تنشر عبر ديوانه (١)

ويرى آخرون الشاعر كان قبلا على الموت ، اقبالا ايجابيا واعيا
راجيا ان يجد في صدره الراحة من هذا العالم المظلم (٢)

وهناك من رأى ان الشابي لم يعشق الموت حتى ولو شققت الحياة
ولم يرمنه الا استعلاء عندما ايقن انه سيخترم سريعا ، حاول
ان يصرف نفسه عن مرارة الكأس ، اويهبون هذه المرارة على الاقل (٣)

ويرى الباحث ان الشابي كان يحب الحياة ويكره الموت ، ويشقى
اذا احس يقرب النهاية . حين اعيب الشابي بقلبه ، وادرك ان الموت

(١) مجلة الاداب ، العدد السابع ، السنة الثانية ، يوليو ١٩٥٤ ، ص ٥ .

(٢) خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، مقال ورد في كتاب دراسات
عن الشابي اعداد ابو القاسم محمد كرو ص ١٠٢ .

(٣) نعمات احمد فؤاد ، شعب وشاعر ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

مترص به لا محاله ، لا ينفعه طب الاطباء ، ولا التعاويذ والرقى ،
عندها رجب بالموت كشر لا بد منه ، وكأني به يقول :

اذا لم يكن من الموت هد فممن الماران تصوت جنانا
سأت حاله باصابتة بقلبه ، ويموت من احب ، وبأعدائه المترصين
به ، شمر بتفاعة العيش وتمنى الموت ، ولسان حاله يقول :
ليس من مات فاستراح يميت انما الميت يميت الاحياء
انما الميت من يعيش كميها كاسفا باله قليل الرجاء
احب الشابي الحياة ليس لنفسه فحسب ، ولكن لشعبه فطالما عثف
بهم مطالبهم بالحياة :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ويظل الموت عند الشابي حقيقة مره مبغضة :
حقيقة مره ، باليل مبغضة كالموت لكن اليها الورد والصدر (١)
ويكره الشاعر الموت ، ويقدر قيمة الحياة ، وبراغا السيدة
والناس السودون ، يدرك ذلك حين اغتيال الردى والده فقال :
ما كنت احسب بعد موتك بأبي ومشاعري عياء بالاحزان
اني سأظلم للحياة واحتسي من نهرها المشويع النشوان
واذا التشائم بالحياة ورفضها ضرب من البهتان والبهذيان
ان ابن آدم في قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الايمان

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٨٢ . ٧٣ / ٠٠٠

وأحصت نعمات احمد فؤاد في بحثها عن الشاعر ، انه هتف بالحياة
والامل في ديوانه ثلاثثة وخمس عشرة مرة ، ظفرت لفظنة الحياة وحدها
بمئة وستة عشر موضعا ، من مثل الاماني ، السرور ، السلام ، ابتسام ،
الجمال ، الطروب ، بهجة ، ، نشيد الرجاء ، الافراح ، خمر الحياة ،
الحب ، الشوق ٠٠٠ الخ ، وتتساءل الكاتبة أليست هذه الالفاظ ، لبنات
الحياة البناء الآمله الراغبه ؟ (١)

وأجيب نعم بل هي كذلك ، ولو لم يكن الشاعر حريصا على
ذلك ، لما وقف يقارع الاستعمار بقصائده ويحارب الجهل والتخلف .

وتستمر الكاتبة فتري ان الحياة لم تغز بثلاثثة وخمسة عشر لفظا
فحسب ، بل ان في رصيدها مئة وواحد وستون لفظا آخر ، هي الفاظ
القوة والاستشراف في الديوان ، مثل : مجد ، يثار ، الحق ،
الحسام ، القوة ، تشتعل ، اليقظة ، أجسج ، يثبر ، الجسور ، اجنحه ،
مندفع ، غيب ، اباء ، اضرم ، العز ، وتتساءل الكاتبة أليست القوة
والاستشراف من معاني الحياة ، ومن مقوماتها الاصلية ؟ (٢)

وبعد كل ذلك استطيع القول انه لم تكن للشابى فلسفة
- بمعناها العميق - في الصوت ، وان كل ما اثاره هي استفسارات
حائره تركها غائمه تنتظر جوابا ، ولا عجب في ذلك فأهو القاسم
شاعر مرعوف الحس والمشاعر ، ليس فيلسوفا .

(١) و (٢) نعمات احمد فؤاد ، شمع وشاعر ، ص ٧٠ ، ٧١ .

٣ - موقف الشابي من شعبه :

فلسفة القوة :

إذا كنا قد توصلنا الى انه لم تكن للشابي فلسفة واضحة في الموت انما هي تأملات وتساؤلات لم يستطع لها جوابا .

تقد كان للشابي من ناحية اخرى فلسفة واضحة ، لا تقبل الشك ، هي فلسفة القوة ، وان البقاء للافضل ، لقد كرس الشابي العديد من القصائد لهذا الفرض ودعا اليه بصراحة ، لقد توصل الشاعر الى ان الحياة صراع بين القوى والضعيف ، والضعيف هو المنهزم دائما .

ان الحياة صراع فهما الضعيف يداس

قرر ان الذل ، هو سبة عار ، لا يرتضيه الكرم .

والذل سبة عار لا يرتضيه الكرام

قام اليأس ودعا الى مقاومته واعتبره موتا ، بل موتا لا يحقق الراحة الابدية ، انما موت يثير الشقاء . ودعا الى اخذ الجسد والاجتهاد والمثابرة في العمل والدأب للوصول الى القام الذي يحقق للامه عزتها ومكانتها .

وللشعب حياة	حينما ، وحينما فناء
واليأس موت ولكن	موت يثير شقاء
والجد للشعب روح	توحي اليه الهناء
فان تولت تصدت	حياته للبلاء (١)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٥ ، ١٦ .

وانطلاقاً من فلسفة القوة ، التي بها يتحقق مجد الامم وبنيتها
دعا افراد شعبه ، الى التحالف العزيمه ، والاخذ بأسبابها ، فهي التي
يخرامها كل جبار ، ويخشاها كل معتد ، وأي شيء أضرم على العزيمه
والغضاء من اليأس والقنوط ؟ فالاقبال على الحياة وحبها يقود الى
المجد ، والقنوط يقود الى اللحد .

وفي العزيمة قوات مسخرة يخردون مداها الشامخ الجبل
والناس شخصان ذا يسعى به قدم من القنوط ، وذا يسعى به الامل
غذا الى الموت والاجداث ساخرة وذا الى المجد ، والدنيا له خيول (١)

والشابي الذي احب الحياة ، وكره الموت ، كره كل مسيئات
الفناء ، كره الحروب التي تودي بالانسانية وتذهب المحبة ، وتحلل
البغضاء . دعا الى السلام ، واعتبره الطريق الافضل للانسانية ، ولكنه
سلام بعيد عن الاستسلام ، فاذا ما فرضت الحرب على الشعوب ،
فلتنهض ولتقاتل قتال الابطال .

فما الحرب سوى وحشية نهضت	في انفس الناس ، فاقادت لها الدول
وأيقظت في قلوب الناس عاصفة	غمام الوجود لها ، وارىدت السبل
فالدعير منتعل بالنار ملتحف	بالهول والويل والايام تشتعل
والارض دامية ، بالاثم ظامية	ومارد الشرف في ارجائها شمل (٢)

وأى شيء أسمى من الحرية ، وأى مشكلة عانتها الامم العربية في
تاريخها المصاير ، اعظم من مشكلة العبودية ، كبّل المستعمرون الامم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢ .

وأبناءها ، سلبوا حريتها ، فدعاهم الى الثورة الى انتزاع الحرية من
انياب الذئاب المفترسة .

آمن الشابي بمدأ انساني وعنه الامل في مختلف عصورها ، ودعت
اليه الاديان على تعددها ، الحرية هي منحة الله للفرد ، التي يجب
الحرص عليها والقتال دونها .

خلقت صليقا كطيف النسيم	وحرا كصور الضحى في سماء
تفرد كالظير اين اندفعت	وتشد وبها شاء وحي الاله
وتسرح بين ورود الصباح	وتنعم بالنور أنى تراء
كذا صاغك الله يا ابن الوجود	والقتك في الكون هذى الحياة
فمالك ترضى بذل القهود	وتحني لمن كبلوك الحياة
الا انهض وسر في سبيل الحياة	فمن نام لم تظهره الحياة ؟ (١)

وتظهر فلسفة القوة عنده اكثر ما تظهر في قصيدته - فلسفة
الشعبان القدس - ويبدو انه رمز للمستعمر بالشعبان ، والشحور للشعب
الضعيف المالم . . . لقد كان الشحور يغني طربا منشدا اغانيه
للشمس المشرقة ، وللأعشاب النديه ، تعيش في قلبه السعادة ، ويغمر
نفسه حب الحياة ، لا يضم الحقد ، ولا يظهر البغض .

الشاعر الشحور يرقص منشدا	للشمس ، فوق الورد والأعشاب
شعر السعادة والسلام ونفسه	سكوى بسحر العالم الخلاب

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٨ . ٧٧/...

ولكن الثعبان يضغطن عليه ، ويحسد عليه عيشه ، أراد ان يصرعه
يصرع السعادة ، يقتال السلام ، يقتل الطمانينة ، يبديد الحب ، ليجل
محله الدمار ، ينزع السلام ، ليقرر الحرب .

ورآه ثعبان الجبال ، فغمته ما فيه من مرج ، وفيض شباب
وانقض مضطئعا عليه كأنه سوط القضاء ، ولعنة الارباب
يفت الشقي فصاح في عول القضا مشللتا للصائل المنتساب

وقف الشحرور ، امام العدو المترصر ، يصرخ لا يجد سلاحا يشهره
حاول ان يبحث عن الاسباب التي جعلت المجرم ينقض عليه ، واخيرا
عشر عليها .

وتدفق السكين يصح ثائرا	ماذا جنيت انا فحق عقابي
لا شيء الا انني متفزل	بالكائنات منرد في غايي
القي من الدنيا حنانا طاهرا	وابشها نجوى المحب الصابي
ايعد هذا في الوجود جريمة	اين العدالة يا رفاق شبابي ؟

واخيرا امتدى الشحرور الى الاجابه ، طرح سؤالا وأجاب عنه
ان سعادة الضعيف تعتبر جرما عند القوى ، يجب ان تلب ، وان العدل
في هذا الوجود لا يمكن ان يتحقق الا اذا تعادلت القوى وتساوت ، فلا
عدل ولا حق غير مدعم بالقوة .

لا (أين ؟) فالشرع القدس ها هنا	رأى القوى وفكرة الفساد
وسعادة الضعفاء جرم ، ماله	عند القوى سوى اشد عقاب
ولتشهد الدنيا التي غنيتها	حلم الشباب ، وروعة الاعجاب
ان السلام حقيقة مكذوبة	والعدل فلسفة اللهب الخابي

لا عدل ، الا ان تعادلت القوى وتصادم الارهاب بالارهاب (١)

هذه هي فلسفة الشاعر التي آمن بها ، ودعا شعبه الى
اعتناقها ، واتخاذها سنة لحياته .

ولكن ما هي السبل التي سلكها الشاعر ليصل بهذه الحقيقة
الى قلب شعبه ؟ لقد ايقن الشابي ان العدو الاول الذي يجب ان
تصوب اليه اولى سهامنا هو الجهل والتخلف ، وايقن ايضا ان الامه لن
تتحرر الا اذا اخذت بأسباب القوة وعاشت يومها مستفيدة من عناصر
القوة في تاريخها ، نابذة كل غث ، مستغنية عن كل سفاسف ، آخذة
بمركب الحضارة والملم الذي اشرق على الدنيا في عصرها الحديث .

لذا كان اول عدو هاجمه الشابي ، قبل مهاجمته الاستعمار
هو التخلف والجمود ، والقيود في مواطن الذل ، والاستكانة للاحداث ،
لذا فقد نعى على امته وابنائها قلة المفكرين فمهما ، قلة الطامحين
الى مراقبي المجد والسؤدد .

أين يا شعب قلبك الخائف الحساس ؟ أين الطموح والاحلام ؟
أين هم الحياة يدوى حو اليك ، فأين المفكر القلدام ؟

اخذ على شعبه ضياع العزيمة ، واخذ عليهم الضعف والخسور ،
وتبدد الشاعر .

أين عزم الحياة لا شيء الا الموت والصمت والظلم
عمر ميت ، وقلب خواء ولم لا تشيره الآلام

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٩٢ .

أى عيش هذا ، وأى حياة رب عيش اخف منه الحمام (١)

الشاعر في هذه المرحلة ، مشفق على شعبه ، متعاطف معه ، بين له مكايين الداء ، علّه يحوّل أسبابها ، أن من أهم المشكلات التي تواجه هذا الشعب ، وتحول دونه والحرية ، هي عدم سماعه لدعاة الإصلاح من بيّمه ، بل والنهوض لقارعهم ومقاتلتهم .

استمع اليه في قصيدته " تونس الجميلة " :

لست ابكي لعسف ليل طويل	أولريح غدا العفاء مراحه
انما عبرتي لخطب هيسيل	قد عرانا ، ولم نجد من ازاحه
كلما قام في البلاد خطيب	مقظ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الالهى بالعسف	اماتوا صداحه ونواحه
أنا يا تونس الجميلة في لج	الهوى قد سمحت اى سباحه
شرعتي حبك العميق وانى	قد تذوقت مره وقراحه

ثم ينتقل الشابي بشعبه الى مرحلة ثانية ، هي اثارته ضد الظالم ليشأر لدماء ابنائه المراقه ، ليحرر ارادته المكبلة ، فاذالم ينهض لذلك ، فهو بالموت اجدر ، ، وبالفناء احق .

كل قلب حمل الخسف وما	مل من ذل الحياة الارذل
كل شعب قد طغت فيه الدما	دون ان يثار للحق الجلى
خلة للموت بطويه فما	حظه غير الفناء الانكل (٢)

ويرى ان الشعب لا ينهض الا اذا نهض فيه المنم ، وهذا لمن يكون الا اذا احب الحياة ، فحبها يتخطى كل الصعاب ، والاموات هم

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٢٥

٨٠ / ٠٠٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٠

الذين يألفون القيود ، أما الأحياء ، فانهم قساديون ومستطيعون الفكاهة
منها بالعمل الجاد .

لا ينهض الشعب الا حين يدفعه عزم الحياة ، اذا ما استطاعت فيه
والحب يهترق الغبراء مندفعاً الى السماء ، اذا هبت تناديه
والقيء يألفه الاموات ، ما لبثوا اما الحياة فيبليها وتبليسه (١)
وتبلغ ثورة ابي القاسم أوجها ، ويتضح رأيه في الحياة وحبها ،
ويرسم لنا طريق بلوغها ، في تصيدته المشهورة " ارادة الحياة " ولعل
اسم القصيدة ، يحمل اعطق فلسفة الشاعر " انها ارادة الحياة " فمن
ارادها ارادته ، ومن احبها عمل من اجلها ، وداس الصعوبات التي تسد
الطريق ، واخضع كل شيء حتى القدر ، وأزال ظلمة الليل الحالك ، لتحل
محلها اشراق الصبح ، وكسر الاغلال .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

اما اولئك النفر الذي لم يعشقوا الحياة ، فان الحياة ستوصل
ابوابها دونهم ، وسوف يكون الفناء رائدهم .

ومن لم يعانقه شوق الحياة تبخر في جوها وأندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة من صفعة المدم المتصر

اما الانهزاميون السليبيون ، فهم المنحسرون ، العائشون بين
الشعاب ، وفي ظلمات الكهوف ، يشلمهم العار ، ويدشرهم الذل بدثاره .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١١٨ . . . / ٨١

ومن لا يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر
ثم يعود مرة أخرى ليشير الى منطلقه ، ويؤكد فلسفة " ارادة
الحياة " .

وقالت لي الارض - لما سألت : " أيا أم هل تكرعين البشر "
"أبارك في الناس اهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر "
"والعن من لا يماشي الزمان ، ويقنع بالعيش عيش الحجر "
"هو الكون حي يحب الحياة ، ويحتقر الميت مهما كبر "
"فلا الافق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزعر "
"ولولا امومة قلبي الرؤوم ، لما ضمت الميت تلك الحفر "
"فويل لمن لم تشقه الحياة ، من لعنة العدم المنتصر " (١)

ثم ينتقل ابو القاسم بشعبه الى المرحلة الثالثة ، مرحلة تهديد
الظالمين المتصلفين بشورة الشعب ، وكأنني به يريد ان ينزل الخوف
من النفوس ، بعد ان ترسح لديها انها ضعيفة امام عدوهمك وسائل
الفتك والفساد ، وهي ضعيفة لا حول لها بلقائه ، وكأنني به اراد من
هؤلاء المستعمرين ، الذين غرتهم القوة وأعماهم الطمع ، ان يعودوا الى
رشد هم ، ويتنازلوا عن سلفهم ، ليقول ان الشعب مهما ضعف لا
انها قادرة على الفتك بهم ، وتصفيتهم .

استمع اليه يخاطب المستعمرين :
يا أيها السادرني غيِّب
يا واقفا فوق حطاسام الحياة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

مهلاً ففي أنات من دسستهم
صوت رهيب سوف يدوى صداه
بها أيها الجبار لا تنزدرى
فالحق جبار طويل الأناء
يغنى وفي أجفانه يقظنة
ترنو إلى الفجر الذي لا تراء (١)

فالسلاح الذي يتسلح به الشاعر ، والذي يهدد به الظالمين ،
هو سلاح الحق ، وأي سلاح أقوى منه ، إذا تسربل به شعب منحه
القوة ، أو معنى في سبيل الحصول عليها .

وفي قصيدته " زئير الماصفه " يقول :
فيما أيها الظلم المصغر خدّ رويدك أن الدهر يبني ويهدم
سيثأر للفرز المحطم تاجه رجال إذا جاش الردى فهم شم
رجال يرون الذل عارا وسبة ولا يرهبون الموت والصوت مقدم (٢)

وفي قصيدته " إلى الطاغية " يقول :
يقولون صوت المستذلين خافت وسمع طغاة الأرض (اطش) اضخم
وفي صيحة الشعب المسخر زفرع تخر لها شم العروش وتهدم
ولملة الحق المضروب لها عدى ودمدمة الحرب الضروس لها شم
إذا التفحول الحق قم فانه يصم أحداث الزمان ويصم

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٥٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

لك الويل يا صرح المظالم من غد
اذا نهض المستضعفون ، وحمسوا
افرك أن الشعب مفض على قذى
وأن الفناء الرحب وسنان مظلم
ولكن سيأتي بعد لاي نشورها
وينشق اليوم الذي يترنم
هو الحق يغنى ثم ينهض ساخطا
فيمهدم ما شاد الظلام ويحطم (١)

وبعد ، لقد أوضح الشاعر لشعبه فلسفة الحياة ، وانها قائمة
على القوة ، وان الحياة فيها للاقوى ، وان دروب الحياة ، مفتوحة لمن
ارادها ، ثم انتقل ليربهم مواطن الضعف ، ومكاسن الداء ، ثم
دعاهم للثورة ، الثورة على التخلف ، الثورة على الجهل ، على المرض ،
قبل الثورة على المستعمرين .

ثم حاول الشابي ان يبعث العزم في نفوس الامة ، وانها قوية
على ضعفها ، اذا آمنت بحقتها ، وأحبت الحياة ، صب جام غضبه على
المستعمرين ، انذرهم وعددهم ، عساء يصيبهم في معنوياتهم .

ولكن هل استجاب الشعب ؟ هل وعي الحقيقة ؟ هل ادركها ؟
هل تشبها سلوكها ؟

هنا تبدأ المرحلة الرابعة من علاقة الشاعر بشعبه مرحلة
البأس والنقمة ، لم يصل الشعب بعد الى الانفج ، ولم يستطع ان
يلبي داعي ابي القاسم ، فتأخر في ثورته ، واستعجله الشابي ، ولكنه
لم يأبه ، وأراد ابو القاسم ثورة عارمة تدمر كل اسباب الضعف ، ولكن
الشعب الذي لم يتهيأ لذلك توانس ، فغضب منه الشاعر وسخط عليه
واتهمه بالجنون .

انني ارى ، فأرى جموعا جمّة لكنها تحيا بلا ألباب

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٣

وعاب فيهم اقتتالهم واختلافهم :

وقضوا على روح الاخوة بينهم جهلا وعاشوا عيشة الاغراب
لعب يحركها المطامع واللهي وصغائر الاحقاد والآراب

وعاب ايضا ادبارهم عن كل دعاء الاصلاح :

الشاعر الموعوب يهرق فنه هدرأ على الاتدام والاعتاب
ويعيش في كيون عقيم ميت قد شيدته غباوة الاحقاب (١)

وحاول الشابي ان يظهر شعبه على مواطن القوة فيه ، وانه
تأدر على السيطرة ، على الحياة ، وان يتبوأ احسن مكان فيها ، لو
حرر ارادته ، واسلم زمامه لقيادة سلبية ، تأخذ بيده ، وتقوده الى
سالك القوة ، وتحرر افكاره ، من اسار تقاليد عفى عليها الزمن .

أبها الشعب انت طفل صغير لاعب بالتراب واللبلب مفس
انت في الكون قوة لم تسها فكرة عبقرية ذات أساس
انت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من اس اس

ان دعوات الشابي ، لم تجد اذنا صاغية فحسب ، بل وجدت
نكرانا وجحودا ، فتعرض الشابي لهجوم عنيف ، شنه عليه ، اولئك
النفر ، الذي يحقق قعر الشعب غناهم ، وتصاصته سمحاتهم ، اولئك
الناس الذين ساروا في ركب المستعمر ، يساعده في قهر الشعب ،
وامتنزاف ثرواته .

ونقم الشابي على رجال الدين ، لانهم لم يستغلوا سلطانهم
ووعيمهم لتهيئة الناس للشورة على الظالمين ، وكان بإمكانهم ان يفعلوا

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٨٤ .

الكثير ، ففي تعاليم الاسلام دعوة للقوة ، ودعوة لقتال اعداء الامه ،
وفي تاريخ الاسلامي ما يصلح لان يكون نعم القدوة لهؤلاء المظلومين .
لم يفصل هؤلاء شيئا من هذا .

سليء الدهر بالخداع فكتم قد ضلل الناس من ايام وقس (١)

حين ادبر الناس عن ابي القاسم ، وحين رموه بالمروق والخروج
عن مألوف امرهم ، حزن وشعر بالشرية بين قم لا يفهمون دعواه .

يا صميم الحياة كم انا في الدنيا غريب اشقى بغيرية نفسي
بين قم لا يفهمون انا شديد فؤادى ولا معاني بؤسي
في وجود مكبل بقيسود تائه في ظلام شك ونحس

شار ابو القاسم على شعبه ، وكان يجب ان يكون رحيما وديعا
مدركا سنة التطور ، وان الشعب حتى تتبنى له الثورة ، لا بد وان
ينضج وهي ما حوله ، ولكنها ثورة نبعت من رصف حسه ، ومن حرصه
الشديد على مصلحة شعبه ، شار الشاعر ثورة رومانية " فلم يكن
الرومانتيكي عادة بالمرح ولا بالمفائل ، وانما كان فريسة الم سرير بسبب
الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدر ما فيه من نبيل الاحساس بونتيجة
انهيار آماله الواسعه ، وتعذر ظفوه بالمشال المنشود ، لذا كان الحزن
طابع الرومنسيين وهو حزن يدل على عزلتهم الروحيه ونفورهم من
ادواء المجتمع " (٢)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٦ .

(٢) د . محمد فنيي غلال ، الرومانتيكيه ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٤٣

ثار الشابي على شعبه ، واتخذت ثورته دواعي عده ، فهو
يتهم الشعب بالكفر بالحياة ، وعبادة الماضي ، والتخلي عن الحاضر ،
ووصفه بأنه كاهن الظلام .

انت يا كاهن الظلام حياة تمعد الموت انت روح شقي
كافر بالحياة والنور لا يصفى الي الكون قلبه الحجيرى
انت دنيا يظنها افق الماضي وليل الكآبة الابدى
والشقي الشقي في الارض شعب يومه ميت وماغيه حي

يئس الشابي وتراجع ، وانقلب حبه لشعبه نقمة على عذا الشعب
انه يشور حتى ليمتنى ان يحطم الرؤوس في هذا المجتمع ، وازالته من
عالم الوجود ، لانه لا يصلح للحياة ، وهكذا تكون رسالة الشابي قد
انتهت بسلبية بغضه وبأس قاتل ، ولمرض ابي القاسم ، وتفلسوز
اعصابه السبب الاكبر في ذلك ، بل لصل نقمته على شعبه كانت
نابعة من حبه العميق له ، وما اشبه غضب الشابي على شعبه ،
بغضب محب على حبيبته ، فان غضبه نابع من عميق حبه ، وهو ان
غضب ، فهو غضب مؤقت لا يحمل في طياته الحقد ، وان اتسم بالصف
والاقتذاع .

ايها الشعب ليتني كنت حظاها فاعوى على الجدوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول اذا سالت تهدد القبور رمنا برمسي
ليتني كنت كالشتاء افشسي كل ما اذيل الخريف بقرمسي

ثم انسحب الشابي عن الحياة ، وهجر شعبه ليميش في الغاب ،
وكأنه وكعادة الرومانسيين يجد في الغاب الراحة من شرور المجتمع

الذى صم آذانه عن سماعه .

في صباح الحياة ضمخت الكواهي	وأترفتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها اليك فأعسرت	رحمتي ودست يا شعب كأسني
فتألمت ثم أسكت آلامي	وكفكت من شهورى وحسي
ثم نضدت من أزا غير قلبي	باقية لم يمسها أي انس
ثم قدمتها اليك فمزقت	ورودي ، ودستها أي دوس
ثم البستني من الحزن ثوباً	وبشوك الصخور توججت رأسي (١)

هذه هي الاسباب التي جعلت ابو القاسم يعتزل شعبه الى الغاب ، اوضحها له ، وكأنه يشير الى المبرر ، أو يلتزم العذر ،
ها انا ذاهب الى الغاب علي في صميم الغابات ادفن نفسي

لقد فر من الناس بعد ان تحقق من فشل الرسالة التي نادى بها ، ومن اعراضهم عنها ، ، وبعد هل كان للشابي رسالة في الحياه ؟ بعد ما علمنا ما كان بينه وبين شعبه . وهل انتقصت نقمة الشابي على شعبه في آخر عهده ، شيئاً من هذه الرسالة ان وجدت ؟؟

نعم كان للشابي رسالة واضحة لا تقبل الشك ، وتعرض الظمن ، رسالته هي مقارعة الاستعمار ، فالشابي يؤمن بالحياة ، ومؤمن بالشعب ورسالته كانت رسالة كل شعب حر ، رسالة كل متحرر . كانت ثورته على المستعمر تكتمع معها الثقاليد المتحجرة ، كانت رسالة الشابي ،

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٠٢ .

رسالة التجديد مع الاحتفاظ بالاصالة القومية ، والاخذ من القديم كل نافع ، كان يريد ان يسير مع الانسانية حيث النور والحقيقة .

والباحث لا يرى ما رآه الدكتور عمر فرج في ان الشابي كانت تموزه الرسالة حين يقول " والشابي شاعر ناقم يزعم انه يريد ان يؤدي رسالة ولكنه في الحقيقة يحمل معسولا ليهدم به كل شيء في الحياة والناس والبلاد والوطن والامة ... وان اداء الرسالة يقتضي اتجاها واضحا وثباتا على مبدأ (١) .

ولست ادري كيف اتخذ الاستاذ فرج هذا الحكم ، اين هو معول الهدم ؟ هل عوته فيه بالحياة ودعوته الى الاخذ باساليب القوي ؟ هل هو صموده امام كل التحديات النفسية والمادية ؟ اذا كان الدكتور فرج قد اخذ على الشاعر سخطه على شعبه في اواخر ايامه ، فاعتقد انه سخط ، نبع من حب الشاعر لشعبه ، سخط نبع من مقاومة بعض فئات الشعب لهذا الشاعر ، ولا يعني هذا انني اتعاطف مع الشاعر ، واقف معه ، وكنت اود ان لا يقسو الشاعر على شعبه ، وان يأخذه باللين ، وان يدرك ان الثورة الشعبية ، لا تتحقق في يوم وليلة بل لا بد من نضج الشعب ووعيه ، وهي مسئولية الثقة الواعية في الامة .

٤ - موقفه من الدين :

يرى الدكتور عمر فرج ان الشابي قد خرج في شعره عن الدين وتماليمه ، فهو ينحرف في تشابيهه واستعاراته - احبانا - منحى لا يقره التوحيد ، او هو زندقته في رأى النقاد القدماء (٢) فهو يتكلم

(١) د. عمر فرج ، شاعران معاصران ، ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

عن المرأة فيقول :

انت قدسي ومعبدى ومباحي ورهبتي ونشوتي وخلوتي
يا ابنة النور انني انا وحدي من رأى فيك روعة السجود
وحرام عليك ان تصحقي آما ل نفس تصبو لعيش رفيد
فالاله العظيم لا يرحم العبد اذا كان في جلال السجود (١)

وقال الشابي في احدى وطنياته :

لست ابكي لعسف ليل طويل او لربيع غدا العفاء مراحمه
انما عبرتي لخطب هينيل قد عرانا ولم نجد من ازاحه
كلما قام في البلاد خطيب موقظ شعبه اراد صلاحه
اخمدوا صوته الالهى بالعسف اساتوا صداحه ونواحيه (٢)

فقلوبه :

ملهيء الدهر بالخداع فكم قد ضلل الناس من امام وقس

وقد يكون الدكتور فروع اخذ على الشاعر قوله في البيت الاول " انت قدسي ، ومعبدى " ومثل هذا الكلام مأثور لدى الشعراء ، وليس القصور به العبادة الدينية ، وقد يكون القصور الولاء والحب الدائم وعدم قدرته الخروج عن طوع من احب . بل قد يجد الباحث في البيت الثاني ، روعة الايمان ، لانه رأى في جمال حبيبته قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والابداع .

اما قوله :

فالاله العظيم لا يرحم العبد اذا كان في جلال السجود
يرى الشاعر ان الله في رحمته لعباده عو القدورة التي يجب ان

يقتدى بها .

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣ .

اما في القصيدة الثانية ، قد يكون الناقد ، اخذ على الشاعر /
قوله صوته الالهي ، واعتقد ان هذه الصفة لا تضير ابا القاسم لانه
يرى ان موت هذا المصلح الداعي الى الخير والصلاح ، كانه صوت
من السماء ، ومثل هذه الاوصاف مألوفة في الادب العربي وغيره .

اما في قصيدته الثالثة حين انحس الشاعر باللم على الامام والقس

مليء الدهر بالخدايع فكس قد ضلل الناس من امام وقس
لا يعني هذا انه يلوم وينقد في شخصيتهم الدينيين الاسلامي
والمسيحي ، بل قد يكون ذلك حرصا على كلا الدينين ، ودعوة لرجال
الدين فيهما ، الى الاخذ بحذافير الدين واصوله وجوهره ، كي
يسمو بالناس ...

كما شار رجال الدين على الشابي عندما نشر قصيدته المشهورة .

اذا الشعب يوما اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل ان ينجلي ولا بد للقيد ان ينكسر

شار عليه رجال الدين ، وأشاروا الصحف والجمعاء ، فكيف
يقول الشاعر " لا بد ان يستجيب القدر " كيف يستجيب القدر لقوة
الشعب ، بينما القدر لا يستجيب الا لقوة الله ؟ لقد اعتبر رجال الدين
" الشابي " كافرا ملحدا ، وهاجموه هجوما عنيفا وحاربوه على نطاق
واسع (١) .

(١) رجاء النقاش ، ابو القاسم شاعر الحب والثورة ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ،

الطبعة الاولى ، ١٩٧١ ، ص ٦٥ .

والباحث لا يرى في قول الشاعر " لا بد أن يستجيب القدر " خروجاً على الدين ، بل أرى أنها تتفق مع تعاليمه الداعية إلى القوة ، وإن الله وعد عباده في كثير من آياته بالنصر إذا هم عملوا . .

كما شار عليه هؤلاء لأنه قال في إحدى قصائده مخاطباً حبيبته :

انت انشودة الاناشيد غناك اله الغناء رب القصيد

قالوا عنه انه " وشني " فهو يؤمن " بآله للثناء " ، ومعنى هذا انه يؤمن بآله " للحب " وآله " للمطر " وغير ذلك مما لم تعرفه إلا المصور الوثنية سواء عند العرب أو عند الأفريق ، ومعنى هذه التزعة الوثنية ان الشاعر مشرك لا يؤمن بآله واحد ، وهو بذلك ضدد " الوحدةانية الاسلامية " (١)

والباحث لا يرى هذا الرأي ، فان الله عز وجل ، هو آله ، لكل ما في الوجود ، هو آله الحب ، وآله الخير ، آله الغناء ، آله الصرة ، ولكن الباحث يرى ان ابا القاسم كانت تتقابه شورات عاطفية ، لكثرة ما انتابته الدواهي والمتبه الخطوب ، من داء يسكن قلبه ، وموت يتناول كل عزيز ، فكان يجأر لله بالشكوى ، ولكنها شكوى تحكميت فيها العاطفة ، وسيطرت عليها الاعصاب التي ادماها الألم ، شكوى لم تتسم بالصبر الذي حدث عليه الدين ، ففي قصيدته " إلى الله " (٢) يقول :

يا آله الوجود هذي جراح في فؤادي تشكو اليك الدواهي
هذه زفرة يمعدها الهم إلى مسمع الغناء الساهي

(١) رجاء النقاش ، أبو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة ، ص ٦٥ .

(٢) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٩٨ .

هذه مهجة الشقاء تنالجيك فهل انت سامع يا الهي

ثم يشير الشاعر الى المصائب التي حلت به فيقول :

انت انزلتني الى ظلة الارض وقد كنت في سباح زاه

انت عذبتني بدقة حسي وتعقبتني بكل الدواعي

بالاسن بالسقام ، بالهم ، بالوحشة ، باليأس ، بالشقاء المتناحي

ويظهر ضيق الشاعر ، واضطراب اعصابه ، وقلة صبره ، حين يقول :

يا رباح الوجود ، سيرى بعنف وتفتني بصوتك الاواه
وانفحني من روحك الفخم ما يبلغ صوتي آذان هذا الاله
فهو يصغي الى القوى ، ولا يصغي لصوت بين العواصف واه

ثم يقول :

خبروني هل للورى من اله ، راحم - مثل زعمهم - أواه
انسني لم اجده في هاته الدنيا ، فهل خلف اقبحها من اله

لقد تمرد الشاعر ، وخرج عن اطوار النفس الموثونة التي تنسم
ببرد اليقين ، ولا تتلظى بنار الشك ، ولكن هل استمر الشاعر في تمرد
هل اتفق مع نفسه وضميره فيما قال ؟

استمع اليه يعلن التوبة ، ويشعر بتبكيه الضمير ، انه يعاود
اللجوء الى الله ، ويطلب منه العفو ، ويرجوه السماح ، مما ارتكب
من اثم .

ما الذي قد اتيت يا قلبي الباكي ؟ وماذا قد قلته يا شفاعي
يا الهي قد انطق الهم قلبي بالذي كان .. فاعتفريا يا الهي

قدم المأس والكآبد آست قلبي المتعب ، الغريب الواهي
فتشظى ، وتلك بعض شظاياها ، فسامع قنوطه المتناهي

ثم يعود ليؤكد ان قلبه هو معبد الحق ، يعمره الايمان بنور
الله ونقائه :

فهو يا رب معبد الحق ، والايمان والنور والنقاء الالهى
وعونى الجمال ، والحب ، والاحلام ، لكن حطمته الدواعي (١)

عذا التمرد الرومنسى ، وراءه عقيدة راسخة بوجود اله ، وايمان
بالعالم الآخر ، الذى تتحقق فيه العدالة ، وتجزى كل نفس بما عملت ،
كتب ابو القاسم الشابي رسالة الى صديقه الاستاذ محمد الحليوى ، يشكو
فيها عرض قلبه ، يظهر فيه ايمانه بالبعث والنشور " لا تألم يا صديقى
لاخيك ، فان قلبي هو منبع آلامى ، في عذا العالم ، ومن يدري ؟
لهل سيكون منبعا لمثل حياته الآلام في العالم الآخر . (٢)

لقد آمن الشابي برحمة الله ، ولجأ اليه شاكيا حاله ، كلما غصة
الآلم ، او تكالبت عليه المصائب . قال يشكو الى الله مريض والدء ، وما
الحقه به من شقاء وألم " آه . ! رب ! اشقيتني وما اشقيت احدا من
عبيدك ، رب ! عذبتني وانا عبدك الذى لم يجذف باسمك ، ولا كفسر
بنفسك ، رب ! رحماك . ! فان عبد القدر على شديد " (٣)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٠١ .

(٢) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته - شعره ، ص ٦٠ .

(٣) من رسالة بعث بها الى صديقه محمد الحليوى وردت في كتاب ابو القاسم محمد كرو

المرجع السابق ، ص ٦١ .

ويظهر ايمان الشابي العميق بالله حين يجد ان الدنيا ولهوها
وكل ما بها من جمال ، وأسباب لذة ومتعة ، لا تستهويه عن عظمة الله .

ان من أصفى الى صوت المنون وصدى الاحداث

ليس تستهويه الحان الطيور

بين ازهار الربيع الساحرة

وابتسامات الحياة الساحرة عن جلال الله (١)

ولعل احسن ما يوضح هذا الامر ، ويؤكد رسوخ العقيدة عند
أبي القاسم ، هو رد ابي القاسم نفسه على سؤال وجهه له صديقه
محمد الحليمي يطلب فيه ابداء رأيه في بيت قاله الشابي :

حاملًا كالأله قلبًا كبيرًا فيه ما في الوجود من اكوان

فأجابه الشابي :

" ان الفنان يا صديقي لا ينبغي ان يصفى لغير ذلك الصوت القوي
العميق ، الداوي في اعماق قلبه ، اما اذا اصفى الى الناس وما يقولون ،
وسار في حياته الدنيا بأقدامهم ، وآها بآبصارهم ، وأصفى اليها بأذانهم
فقد كفر بالفن وخان رسالة الحياة .

ولو شئت ان اسوق الايات التي لي ، على غرار بيتك هذا ، في
التشبيه بالاله ، لاكثر ، وخرج بي القلم عن غايته ، ولكنك ستري ذلك
في الديوان ان شاء الله ، وانني لاعلم ايمانًا بالله من كل احد ،
حينما اعبر بهاته التمايز الكافرة في نظراؤك الناس ، فالالوهية وما
نعرف منها هي رمز للمثل العليا ، التي نصبو اليها بأرواحنا ، وتشخص
اليها بآبصارنا في حياته الحياة ، ولذلك اذا اردنا ان نعبر عن معنى

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٤٩

نحس له بجلال المثل الاعلى وسموه ، فانما سيلنا في ذلك ان نفرغ عليه رداً للوعية التي هي اسمى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الاعلى وجلاله ^(١)

٥ - موقفه من القديم ودعوته الى التجديد :

تظهر دعوة الشاذلي الجديد ، ومحاربه بعض مظاهر القديم في كتابه " الخيال الشعري عند العرب " وقد القاء على شكل محاضره في القاعة الخلدونية بتونس عام ١٩٢٩ .

والكتاب يحتوى ثمة وأربعين صفحة من القطع المتوسط ، تسع صفحات منها اهداء ، وكلمة المؤلف ، والقائمة . اما الصفحات الباقية فقد تناولت الموضوعات التالية :

- ١ - الخيال : تعريفه ونشأته من وجهة نظر الكاتب
- ٢ - الخيال الشعري والاساطير العربية
- ٣ - الخيال الشعري والطبيعة في رأى الادب العربي
- ٤ - الخيال الشعري والمرأة في رأى الادب العربي
- ٥ - الخيال الشعري والقصة في رأى الادب العربي
- ٦ - فكرة عامة عن الادب العربي
- ٧ - السرح العربية

✓ فهو حين تكلم عن : الخيال الشعري والاساطير العربية كان كل وكده ان يثبت ان الخيال العربي كان قاصراً عن اختراع الاساطير والملاحم

(١) محمد الحليوي ، مع الشاذلي ، سلسلة "كتاب البحث" تونس ١٩٥٥ ، ص ٦٢ .

بمعناها الواسع كما عرفها اليونان القدماء ، ولكنه لا ينفي وجود اساطير عربية جاهلية الا انه يرى انها ضحيلة الخيال ، لا تدل على تعمق فلسفي في معنى الحياة ، والنور الى ما وراء الطبيعة فهو يقول :

"ورأيت في هذه الاساطير هوانها لاحظ لها من وضاعة الفن واشراق الحياء ، وان من المحال ان يجد الباحث فيها مألفان بجده في اساطير اليونان والرومان ، من ذلك الخيال الخصب الجميل ، ومن تلك العذوبة الشعرية التي تتفجر منها الفلسفة الفضة الناعمة تفجر المنبع العذب^(١)" ثم يعرض لعدد من الاساطير العربية ، مثل اسطورة الفول ، واسطورة الهامة ، واسطورة شياطين الشعراء ، واسطورة النجوم ، ليقول معقبا عليها " فهل رأيت فيما تلوته عليكم من اساطير العرب واحدة تشرق بالفن والحياة ، كما يشرق الكوكب بالنور الجميل والوردة بالعطر الازليج ؟ وكذلك كانت اساطير العرب وثيمة جامدة جافية لسم تفقه الحق ، ولا تذوقت لذة الخيال ، وأوهام ممبردة شاردة لا تعرف الفكر ولا اشتملت على شيء من فلسفة الحياة^(٢) "

ومثل هذا الموضوع عرض له الكثيرون قبيل ابي القاسم وبعده ، واحب ان اشير هنا الى محاضرة القاها الدكتور سليمان رميح ، على طلبة السنة الاولى للماجستير في الجامعة الازهرية بعنوان " خواص الشعر الجاهلي " الشعر الجاهلي غنائي لا قصصي ولا تشعيلي " نفس فيهما الدكتور وجود قصص جاهلي بالمعنى الحديث للقصة ، ونفس وجود ملاحم شعرية كملك التي عرفها اليونان والرومان . مع ان مادة هذه القصص

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، الشركة القومية للنشر

والتوزيع ، تونس ، ١٩٦١ ، ص ٣٢ ، ٣٨ .

قَسَد توافرت في الجاهلية ، هذه حروب العرب فيما بينهم ،
وبين الفرس والახباش ، ثم حروبهم الداخلية التي جعلت أيامهم
سلسلة وقائع وأيام ، وهذه أساطيرهم العادية الذاهبة إلى أبعد
أفوار الماضي ، وهؤلاء أبطالهم من الانس والجن ، وهذه تقاليدهم
ومذاهبهم الخيالية والوهمية كلها مادة خصبة كافية تمسك
"لهوميرهم" أن يجد أن ينظم اليانعة عربية حظيرة ، ويرد الدكتور
ربيع عجز العرب عن ذلك إلى أسباب تتعلق بالشاعر العربي نفسه ،
وبالشعر العربي وخواصه ، وبالشعب العربي وحياته الاجتماعية
ومواشيه النفسية " (١)

وهكذا يتضح أن هناك من اتفق مع أبي القاسم في هذا
الموضوع ولكن مع تلاف في الأسلوب وطريقة العرض .

أما في موضوع "الخيال الشعري والطبيعة في رأي الأدب العربي" :

نجد الشابي يقرر أن الشاعر الجاهلي يشكل غاش ، والعربي بشكل
عام لم يتفاعل مع الطبيعة ، ولم يتمثل أحياءها ، وعرض لطائفة من
شعر الطبيعة في العصرين الجاهلي والأموي ، وعقب على ذلك بقوله
" فقد رأيت أن أدب هذين العصرين قد كان لا يعرض لوصف مناظر
الطبيعة إلا إذا دعت إليها الضرورة ، دون أن يسهب في الوصف ، ويشبع
القول ، وكيف أنه إذا تحدث عن ظواهر الطبيعة اسهب في القول وأطال
البيان ولكنه في ذلك لا يتحدث عن الطبيعة بشغف الشاعر ، وخشوع المتعبد
بل يتناولها تناول القاص الذي لا يحفل بجلال المشهد أو جماله وإنما الذي
يهمه أن يصفه كما رآه ، دون أن يخلق عليه حلة من شعوره أو عبقاً من عواطفه .

(١) د . سليمان ربيع ، محاضرة القاها على طالب السنة الأولى للماجستير ،

في جامعة الأزهر ، للعام الدراسي ١٩٧٣ / ٧٢ ، ص ٨٥ - ٩٨ .

٩٨ / ٠٠٠

ويعمل ذلك بقوله : " وان لهذا علته المعقولة ، فقد عاش العرب في وسط لا يعرف سحر الجمال الطبيعي ، فلم يتحدث ادبهم عن هذا الجمال ، وكيف يتحدث عنه ، وعولم يعرفه ؟ ثم عولم يتحدث عن الطبيعة بلهجة المعجب المأخوذ ، لان الطبيعة لم تخلع على ارضهم من نضارة الحسن ما يحرك في قلوبهم ادق وشائج الحسن ، ويفتح قلوبهم لتذوق ألوان الجمال فظلت قلوبهم موصدة لا تعرف عاتيه اللذة ، ولا تفقه ذياك الشهور ، زيادة عن انهم لم يختلطوا بغيرهم من شعوب الارض اختلاطا كبيرا يلطف الطبع ويرقق المزاج " (١)

ثم يعرض لنماذج من الشعر العباسي عند شعراء اجدادنا وصف المناظر الطبيعية من مثل ابي تمام ، والبحتري ، وابن الرواسي ، ويعلق على ذلك بقوله " ولكن هذا الفن الوليد لم يكثر كثرة مطلقة في الادب العباسي " (٢)

ويعرض لنماذج من شعر الطبيعة الاندلسي ويؤكد كثرته ، الا انه اخذ عليه وصفه الحسي للمنظر دون الاندماج فيه او تشخيصه .

ويصد ذلك يعرض نموذجين لشاعرين من شعراء العرب ، أولاهما "للأمرتين" وأخراهما "لجيتي" ويقارن بينهما من جهة وبين نماذج عربية من جهة أخرى .

ويصل الى نتيجة " ان شعراء العربية لم يعبروا عن مثل عاتيه الاحساسات الشعرية العميقة لانهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرية الحسي

(١) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢ . ٩٩ / ٠٠٠

الخاشع الى الخي الجليل ، وانما كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منمّق ، وطراز جميل ، لا تزيد عن الاعجاب البسيط (١)

والباحث لا يستطيع ان يقت امام رأى الشابي ويناقشه مناقشة تفصيلية لان ذلك خارج عن نطاق دراسته ولكن الذي أرى ان انوه به ، ان مقارنة الشاعر بين شمراء عرب عاشوا في العصر الوسيط بشمراء غربيين عاشوا في القرن التاسع عشر ، اختلفت بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية والنفسية هي مقارنة ليست عادلة ، لم تراع تأثير الزمان والمكان . كما ارى ان الشاعر متأثر بآراء المدرسة الرومنسية التي كان لامرتين علما من اعلامها ، والتي تسبغ على الطبيعة الحياة ، وتدير معها حوارا تخاطبها ، وتسمع عصفها ، تذوب فيها ، وتشخص مناظرها ، ولكن الادب المصري في عصوره لم يقدم نماذج من ذلك . . .

أما في موضوع "الخيال الشعري والمرأة في رأى الادب المصري :

يرى ابو القاسم الشابي ان المرأة حظيت بقسط وافر من اهتمام الشاعر المصري ويرى " انهم تجاوزوا في التفتني بالمرأة كمل حد حتى اصبحت هي اللحن الجميل الذي تستهل به القصائد ، وهي الكلمة السحرية التي تنفتح لها كنوز الشعر ، حتى اصبحت عند كماله الشعر عند قدماء اليونان ، لا يبدأون الشعر الا بنجواها " (٢)

ولكنه يأخذ عليهم اهتمامهم بجسد المرأة والمتعة بها ، ووصف محاسنها الظاهرة دون الفؤاد الى روحها . ويقسو الشابي قسوة عنيفة

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٦٢ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤

على الشاعر العربي وعلى الادب العربي حين يقول :

" اجمل فان نظرة الادب العربي الى المرأة نظرة دنيئة سافلة
منحطة الى اقصى قرار المادة ، لا تفهم من المرأة الا انها جسد يشتهي
ومتعة من متع العيش الدنيء * ٠٠٠ فالشاعر العربي لا يتكلم عما وراء
جسد المرأة من تلك المعاني العميقة السامية ، ولكنه مجيد كل الاجادة
ان اراد ان يحدث عن قدها الا عيش المشوق ، وعن طرفها اللامع الوسنان
وعن وجهها المتورد المنضور وما الى ذلك من تلك الاوصاف المادية
اللقاء امام كل رائج وغاد " (١)

ثم يعرض نماذج شميرة من النزل الحسي العربي ، ليمسود القول
" فنظر الادب العربية الى المرأة كنظرها الى الطبيعة او ادنى ، لا سمو
فيه ولا خيال ، وانما عوى مادي محض لا يكاد يرى فرقاً بين المرأة
والسرداء وكأس من الخمر ، فالمرأة تتخذ لاشباع شهوات الجسد ، والرداء
يقي الجسم شاجرة الصيف ، ويدفع عنه عادية الشتاء ، وكأس الخمر
يتلهى به آناء الفراغ " (٢)

ولكن اذا كانت هذه مأخذ الشابي على شعراء العرب قسبي
موقفهم من المرأة فما هو الموقف الذي يريده ؟ أو ما هي نظرة الشابي
للمرأة ؟ انه يود ان يتفنى العاشق بجمال محبوبته الروحي ، لا يتفنى
بتلك المرأة التي تضم وتشم ثم تتصوح وتذوى . يود ان يتكلم العاشق
عما وراء جسد المرأة من شعور سماوى رقيق ، وعاطفة ندية ساجية ،
واحلام عذبة ستحبه تتألق سناء وبهجة ، وتشمل العالم كله بالعطف
والحنان " (٣)

(١) و (٢) و (٣) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٧٣ ، ٧٤ ،

٧٧ ، ٩٠ ، ٩١ .

ولكنني قبل ان ابدى رأيي ، أود أن أسأل سؤالا ، هل التزم الشابي
بدعواه ؟؟ هل نظر الى المرأة نظرة روحية فحسب ؟؟ ألم يتغزل
الشابي بمفاتن محبوبته الجسدية ؟؟ ألم يلد بمتعة جسدية منها ؟؟
دعونا نقرأ بعض الابيات من قصيدته تحت الفصوص (١).

ما ارق الشباب في جسمك الغض وفي جيدك البديع الثمين
واق الجمال في طرفك السامي وفي ثغرى الجميل الحزين
والذ الحياة حين تغنين فأعني لصوتك المحزون

احب الشاعر فتاته ورن اليها ، ثم اشتى قبلة ، بل قبلها :

قالت الحب ثم غنت لقلبي قبلا عبقرية التلحين
قبلا علمت فؤادي الاغاني وأتارت له ظلام السنين

ولما أفاق الشاعر من متعة القبلة الحارة قال :

وأقننا ، ققلت كالحالم المسحور "قولي ، تكلمي ، خبريني"
اي دنيا مسحورة أي رؤيا طالعتني ، في ضوء هذي الصيون

ثم يقول :

أي خمر رشفت ، بل أي نار في شفاء بديعة التكوين
أي اثم قدس قد لبسنا برده في مائنا اليمون

ثم يعود بناجي محبوبته :

قبليني واسكرى ثغرى الصادي وقلبي ، وفنتني وجنوني
آه ، ما اعذب الغرام واحلى رنة اللثم في خشوع السكون

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص (١٢) .

ثم ينهي قصيدته ، معبرا اجمل تعبير عن لذة اللقاء :

وسكرنا هناك ٠٠ في عالم الاحلام تحت السماء ، تحت الفسوف
وتواري الوجود عنا بما فيه وغننا في عالم مفتوحون
ونسينا الحياة ، والموت والسكون وما فيه من منى ومنون

ان رأى الشابي في المرأة - الذي سبق ذكره - هو مثالي
بمعدن عن الواقع ، فالمرأة عنده خير كامل وطهارة كاملة ، ونور شفاف
يهبط على حياة الانسان فيحمل اليه كل ماني السعادة الروحية العميقة
لم يعرف الشابي ابدا الاعماق التي عرفها " المزاج الواقعي " والذي
ينظر نظرة انسانية الى الحياة لا نظرة " ملائكية " مبنية على الخيال ،
فالنظرة القديمة على المرأة على انها كائن حي تابع للرجل نظرة
خاطئة ، ولكن النظرة المقابلة ايضا والتي تعتبر المرأة كائنا اعلى من
الكائن الانساني كائنا شفافا يوزع السحر ويشع منه النور ، هذه
النظرة ليست صحيحة بصورة مطلقة ، فالمرأة كائن انساني ، وعضو في
المجتمع وينطبق عليها ما ينطبق على الرجل من مقاييس الخير
والشر (١)

اما موضوع - الخيال الشعري والقصة في رأى الادب العربي :

فقد خلص منه بأن العرب لم يعرفوا القصة الشعرية أو النثرية بمعناها
الفني ، سوى بعض القصص الشعرية عند امرئ القيس ، وعمر بن ابي ربيعة
والتي تحققت فيها - خاصة عند عمر بن ربيعة - بعض الشروط في

(١) رجاء النقاش ، ابو القاسم الشابي شاعر الحب والثورة ، ص ٦٩ .
١٠٣ / ٠٠٠

القصة الحديثة . وإن القصص النثرى ، لم يعرفه العرب إلا بعد ترجمة
- ألدليله وليله - و - كلية ودمنه - (١)

ولعل أخطر موضوع هو - فكرة عامة عن الادب العربي - :

وكان خلاصة لدراسة عن الموضوعات السابقة ، وانتهى بأحكام قاسيه ، وصم
فيها الادب العربي بأنه " مادي لا سموفيه ولا المهام ولا تشوؤ الى
المستقبل ، ولا نظر الى صميم الاشياء ولباب الحقائق ، وأنه كلمة ساذجة
لا تعبر عن معنى عميق بعيد القرار ولا تفصح عن فكري يتصل بأقصى
ناحية من نواحي النفوس ...

وحاول ابو القاسم ان يبرر قوله ، وفي ذهنه ان كلامه لن يلقى
تأييدا من الجميع وان فئة من انصار القديم ستتهض لمناومته .

" على اننى حين اقول هذا الذى قد يراه بعض الناس خطيئة
لا تنفر ، لا انكر ان الادب العربي قد اجاد ايما اجدادة فيما تخصص فيه
من وصف المظاهر البادية وما بينها من تخالف أو تآلف أو تشابه أو
تنافر ، بل ربما فاق كثيرا من الاداب الاخرى في هذا الصدد ، ولا
أقول ان الادب العربي جامد ميت لم يمثل منازع تلك الشعوب التي
عاش بينها تمثيلا صحيحا ولا قدم لها غذاءها الروحي الذي تتطلبه
اشواقها ومشاعرها ، لان الادب العربي كان في جميع المصور التي
تحدثنا عنها ادبا حيا صحيحا فياضا بكل ما تصبو اليه آمال تلك
الشعوب من صور الحياة ومشاكلها المختلفة " (٢)

(١) و (٢) ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٦ .

إذا كان هذا هو رأي أبي القاسم في الأدب العربي ، وأنه أدب
حي عبر عن مشاعر الأمة وأعدائها ، وحمل فكرها ، ونوه باتجاهاتها ،
فما الذي يريده أبو القاسم هنا ؟

أنه يرى أن الأدب العربي القديم خدم عصره ، وعبر عن نفوس
أصحابه ، ونحن بالتالي يلزمنا أدب يخدم عصرنا ، ويعبر عن نفوسنا
"لهذا لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب الذي
ينبغي أن يكون ، ليس لنا إلا احتذاؤه ومحاكاته في أسلوبه وروحته
ومعناه ، بل يجب أن نعدّه كأدب من الأدب القديم التي نحبب بها
ونحترمها ليس غير ، أما أن نسمو هذا الإعجاب إلى التقديس
والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا ، لأن لكل عصر حياته
التي يجيأها ، ولكل حياة أدبها الذي تنفخ فيه من روحها
القشيب (١)

وكان ما توقعه الشاعر ، فهو هجوم هجومًا عنيفًا ورسي بمحاربة الماضي
وأجداده وعقوق آبائه وأجداده ، وبالشورى على القبايس السائدة ، والطرائق
الذائفة ، وبالسخرية من التراث المقدس الجليل ، وتشويهه بحاسنه ،
ومسخ جماله ٠٠٠ وقد نقده الكثيرون في داخل تونس وخارجها ،
وأصل أشهرهم الدكتور مختار الوكيل ، ولكن كيف دافع الشاعر عن
نفسه ؟ وما هي المبررات التي ساقها ، لنسمع ما قاله رداً على نقد
الدكتور مختار الوكيل " أنني إذا كنت أعود إلى التجديد الأدبي ، وأعمل
له ، فإن ذلك لا يدفني إلى الهزء والسخرية بأدب الأجداد ، كما

(١) أبو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

قد حسبت ، بل انني لأؤمن بكل الايمان بما فيها من جمال فني وسحر
قوى ، واعتقد انها آتتني عصورها الحبة لاجدادنا كل ما طمحت اليه
اشواقهم ، من غذاء معنوي دسم ، ولكني أؤمن الى جانب ذلك ان في
الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير ما في الادب العربي من آفاق ، وان
هذا الادب قد شهد ضلة آباءنا الروحية ، فانه لما جاز كل المعجز عن ان
يشبع ما في ارواحنا من جوع وعطش وطمع ، وانه اذا كان لزاما علينا
ان نعجب بهذا الادب ونفخر به كحلقة من سلسلة ذاتيتها العربية
وكنجم ذهبي نرجع اليه كلما اردنا ان نصوغ افكارنا حليها الساحر
الجميل ، فان ذلك الاعجاب لا ينبغي ان يثقل في نفوسنا الى تقديس
عبادة فجود ، فاطباق لا بصارنا عن كل ما في السماء من اشعة
ونجم (١) .

ولكن هل استطاع ابو القاسم ان يفلت من زمام القديم ، وان لا ينج
على منواله ، ويستعير مصانبه ؟ " انك تجد في بعض مقطوعاته ما
يذكرك بالمتنبي ، في ارساله الحكمة السائرة ، وبأبي الملاء في ارتقائه
الى سر من اسرار الحياة فهو يقول في مقطوعة المجد :

يود الفتى لو خاض عاصفة الردى	وسد الخمس المجر والاسد الوردا
ليدرك امجاد الحروب ولو درى	حققتها ، ما رام من بينها مجدا
فما المجد ان تسكر الارض بالدماء	وتركب في هيجائها فرسا نهيدا
ولكنه في ان تصد بهمة	عن العالم المرزوء ، فيض الاسى صدا (٢)

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته ، شمره ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٢ . ٦/٠٠٠

فأنت تجد في هذه الابيات ما يذكر بك بشعر المتنبي ، في وصف
مشارك سيف الدولة " فخور عاصفة الردى " و " صد الخمس المجر " و " الاسد
الورد " لم تكن من ابتكار الشاعر بقدر ما هي تقليد للمتنبي في قوله :
ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد الا سيف والفتك الهكر

وانت حين تقرأ قوله " سر مع الدهر "

سر مع الدهر لا تصدك الاحوال ، او تغزعك الاحداث
سر مع الدهر كيفما شئت الدنيا ، ولا يخدعك النفاث
فالذي يرهيب الحياة شقي ، سخرت من مصيره الاجداث (١)

فيه تقليد للحكمة عند المتنبي وأبي تمام والمصري ، فالترام الدهر
شيء واضح في الادب القديم .

ومع ان الشابي عاجم القديم الا انه ظل رهين اساره ، فهو لم
يستطع الانفلات من الموازين الشعرية القديمة ، وقد بلغ من حفاظه على
القديم انه كان يعمد الى لون من اللون الممارشه ، فحين تقرأ قصيدته
" مفرجة من كتاب الدعوى " ومثلها :

غناه الامس وأطربه وشجاء اليوم فما غده ؟

تذكرنا بقصيدة الحمري الشهيرة :

يا ليل الصب متى غده اقيام الساعة موعده ؟

بل انك تجده يقتبس مصاني القدماء ، فيقول من القصيدة نفسها :

يا للأيام فكم سمرت قلها في الناس لتكده

هي مثل الماهر عاشقها تسقيه الخمر وتطرده

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٥٢ .

تعطيك اليوم حلاوتها كالشهد ليسلمها غده (١)
تذكرنا بما قاله الشريف الرضي في رثاء أمه (٢)

وخلائق الدنيا خلائق موسى للمنع آونة والاعطاء
طورا تبادلك الصفاء وتارة تلقاك تنكرها من البغضاء

٦ - آثار الشابي الادبية :

ترك الشابي آثارا أدبية ونثرية وشعرية ، أهمها :

(١) ديوانه أغاني الحياة :

ويقع في عئة وأربع وتسعين صفحة قياس $15\% \times 22\%$ ، ويضم تسعين قصيدة ، ومقطوعة شعرية ، قدم له أخوه محمد أمين الشابي ، طبع الديوان في مصر عام ١٦٥٥ ، التزمت بطبعه ونشره ، دار الكتب الشرقية .

اختار الشابي لديوانه اسم " أغاني الحياة " واعتمر بطبعه في مصر بإشراف وتقديم صديقه الدكتور أحمد زكي أبو شادن " وأعلن أبو شادي في عدد يناير ١٩٣٤ من أعداد مجلة أويسلو ، قرب ظهور ديوان الشابي " أغاني الحياة " إلا أن مرض الشابي ووفاته بصد ذلك في التاسع من أكتوبر عام ١٩٣٤ حال دون ظهوره آنذاك . (٣)

- (١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .
- (٢) د . إبراهيم السامرائي ، تصور ودراسات عربية وإفريقية في اللغة والتاريخ والأدب وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة العراقية ، سلسلة الكتب الحديثة ص ٣٦-٣٨ .
- (٣) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه ، الحلقة الأولى ، دار الطباعة المحمدية ، بالازهر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٥٢ .

وقيل ان الشابي كان ينسوي ارسال ديوانه لصديقه ابي شادي في نفس اليوم الذي توفي فيه . (١)

مات الشابي والديوان ينتظر من يقوم بضمه وتوزيعه ، وانتظره عشاق الشابي بفارغ الصبر ، ولكن الديوان لم ينشر الا عام ١٩٥٥ بعد احدى وعشرين سنة من وفاة صاحبه .

وانتقد الديوان في اخراجه ، الكثير من مميزات الديوان الجيد ولعل اهمها افتقاده تاريخ القصائد ، التي تتيج للدارس تتبع مراحل التطور التي مر بها ابو القاسم في حياته الادبية ، مع ان ابا القاسم كان قد رتب قصائده وفقا لتواريخها ، وظهر ذلك في رسالة ارسلها الى صديقه محمد الحليوي بتاريخ ١٩/٢/١٣٣٣ ، قال فيها " أما الآن فاني انتخب القصائد التي سأنشرها فيه ، واجمع تواريخها لارتبها على حسبها . (٢)

كذلك فان الديوان يقصده التبويب والترتيب ، فلم ترتب القصائد فيه وفق اجمدية القوافي ، أو وفق موضوعاتها ، اضف الى ذلك اخفاء الطباعة المديدة . . .

(٢) الخيال الشعري عند الصرب :

محاضرة القاها الشاعر تحت اشراف النادي الادبي ، التابع لجمعية

(١) ابو القاسم محمد كرو ، آثار الشابي ومداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت الطبعة الاولى ، فبراير ١٩٦١ ، ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ . ١٠٩ / ٠٠٠

قدماء خريجي المدرسة الصادقية في تونس، وكان قد القاها في
قاعة الجمعية الخلدونية يوم ٣٠ شعبان ١٣٤٧ - ١٩٢٩ .

ويقع الكتاب في ثلثة وأربعين صفحة ، من القطع المتوسط ، وطبع
الكتاب في نفس السنة ، وتولت نشره " دار العرب " للطبع والنشر
في تونس ، لصاحبها الاستاذ زين الماهدين السنوسي ، وهو
الذي كتب مقدمته .

واعيد طبع الكتاب عام ١٩٦١ ، بإشراف الشركة القومية للنشر
والتوزيع بتونس .

وموضوع الكتاب هو دراسة نقدية مقارنة بين الخيال الشعري عند
العرب وعند الأوروبيين .

(٣) القبيرة :

رواية غير منشورة ، ذكرها الاستاذ كرو ، نقلا عن الاستاذ زين
الماهدين السنوسي ، في كتاب الأخير " الادب التونسي في القرن
الرابع الهجري " (١)

(٤) جميل بتهنسه :

قصة جميلة ، موجودة اليوم عند شقيقه الاستاذ أمين الشابي .

(٥) شعراء المغرب العربي :

دراسة لكتاب الاستاذ محمد المباسي القباچ - الادب العربي في
المغرب الأقصى - تناول الشابي الجزء الخاص بالشعراء الشبان

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته ، شعره ، ص ١٣٦ . ٠٠٠ / ١١٠

بالدراسة والتحليل ، ليلقيها محاضرة في النادي الادبي ، ولكنه
لم يلق في النادي من يستمع اليه ، فتركها مخطوطة .

(٦) يوميات الشابي :

وهي مجموعة من المذكرات اليومية كتب فيها الشاعر خواطره ،
وهي موجودة عند صديقه الاسنان ابراهيم ابورقمه بمدينة صفاقس .

(٧) رسائل الشابي :

كان قد وجهها لاصدقائه ، وهي تحمل الكثير من وجهات نظره
ومن اشهر اصدقائه الذين تبادل معهم الرسائل :
محمد الحليوي ، احمد زكي ابوشادي ، ابراهيم ناجي .

(٨) الادب العربي في العصر الحاضر :

دراسة قصيرة تقع في احدى عشرة صفحة ، قدم بها ديسوان
" الينبوع " للشاعر ابي شادي ، ضمنها آراء في الادب الحديث
ورأيه في الشاعر الدكتور احمد زكي ابوشادي .

(٩) السكر :

مريحة ذات فصلين .

(١٠) الهجرة المحمدية :

محاضرة ألقاها الشاعر في " نادي الطلاب " بـ (نموزر " بمناسبة
ذكرى الهجرة المحمدية في سنة ١٣٥١ هـ .

(١١) مقالات مختلفة :

نشرها في المدييد من الصحف المصرية في صروتونس اعلمها

- (١) النفس الشائبة
- (٢) الحقظة الاسلامية الحاضرة
- (٣) الشعر ماذا يجب ان يفهم منه وما هو مقياسه الصحيح
- (٤) ايها القلب
- (٥) اغنية الالم
- (٦) صفحات دامية من حياة شاعر
- (٧) روح شائبة
- (٨) حقظة الاحساس واثرها في الفرد والجماعة
- (٩) الشعر والشاعر عندنا
- (١٠) لصوبة الشعر
- (١١) الفنون والنفس المصرية (١)

* * *

(١) اعتمدت في موضوع آثار الشابي على ما أورده ، ابو القاسم محمد كرو ، في كتابه

الشابي حياته ، شعره ، ص ١٢٠ - ١٣٢ . ١١٢ / ٠٠٠

الباب الثاني

شعره وشاعريته

الفصل الاول

١ - تجربته الشعريه

٢ - منزلته الشعريه

١ - تجربته الشعرية :

أ (مفهومه للشعر :

لعلّ غير ما نبداً به حين نتحدث عن تجربة الشابي
الشعرية ، ان نتعرف على مفهومه للشعر ، وأن نعترف
مقاييسه عنده ، هل الشعر في رأيه هو كل كلام موزون
مقفى ، أم أنه احساس يختلج في نفس الشاعر فيعبر عنه هل الشعر
عنده هو تلبية لمناسبة دعوي للمساهمة فيها ؟ أم أنه تلبية
لاساس اعتمل في صدره ؟ دعونا نستمع اليه في قصيدته
" شعري " (١)

شعري نقاشة قلبي	ان جاشرفيه شعوري
لولا ما انجاب عني	غيم الحياة المطير
ولا وجدت اكتسابي	ولا وجدت سروري
به تراني حزينا	أبكي بدمع حزين
به تراني طروباً	أجر ذيل حبوري

فالشعر عنده استجابة للنفس في شتى أحوالها وتعبير عن
الحسن في كل صوره ، يعبر فيه عن حزنه ان حزن ، وعن سروره

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٣٣ ١١٤ / ٠٠٠

أن سر .

وفسي قصيدته " قلت للشعر " (١)

انت يا شعر فلذة من فؤادي	تتغنى ، وقطاعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين	أبدى الى صميم الوجود
فيك ما في خواطري من بكاء	فيك ما في عواطفي من نشيد
فيك ما في عوالمي من نجوم	ضاحكات خلف الغمام الشرود
فيك ما في عوالمي من ضباب	وسراب ويقظة وهجسود
فيك ما في طفولتي من سلام	وابتسام وغبطة وسسعود
فيك ما في شبيبتي من حنين	وشجون ، وبهجة وجمود

فالشعر عنده هو الحياة كلها بصورها المتعددة ، فيسه
احلام طفولته ، وطموح شبابه ، فيه حبسه للحياة ، فيه تهيئة
من الفناء ، فيه غناؤه للنجوم ، وطربه لانا شيد الطيور فيه
ربيع عمره وخريفها ، شتاؤها وصيفها . بل الشعر عنده هو
قصة عمره كلها :

انت يا شعر قصة عن حياتي انت يا شعر صورة من وجودي

اذن فالشعر عند الشابي ، هو ما يصدر عن النفس ، صدور
الاشعة عن الشمس ، والاربيع عن الزهر ، دون تحمل أو تكلف ،
فذاات الشاعر منبع شعره ، وان كل ما يقوله يجب ان يصدر عنها
دون خضوع للملابسات ، أو مناسبات تصلي عليه . . . استمع اليه يعرف
الشعر ، " الشعر يا صديقي ، تصوير وتعبير " ، تصوير لهذه الحياة

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٨٦ .

التي تمر حواليك ، مغنية ضاحكة لاهية ، أو مقطبة واجمه باكية ،
أو وداعه حاله راضيه ، أو مجدفة ثائره ساخطه ، أو تصوير لآثار
هذه الحياة التي تعمس بها في اعماق قلبك ، وتقلبات فكرك ،
وخلجات نفسك ، ورفرفة أحلامك وعواطفك " (١)

فالشعر عنده ، هو الانفعال ، وجودة التعبير عن هذا
الانفعال ، مما جعل بعض الناقدين يرى ان الشعر هو " مرض "
ابي القاسم ، لقد كانت العواطف عنده مرضا ناهشا يلهث ، واتعبه
الشعر حتى قتله ، ان الشعر قد كان هو السل الأكبر في حياة
هذا الشاعر المشتعل ، ومن اجله عاش يتقذّب بكل جمال يمر
به وان كان عذابه لذيذا (٢).

ولكن اذا كان الشاعر قد حدد لنا من أين يجب ان ينبع
الشعر ، فانه لا يكتفي بذلك ، فمع اهتمامه بضمون الشعر ،
وصدق التعبير ، يجد ان مثل هذا الصدق لا بد ان يعتويه شكل
فني ، والا هبط من سماء الفن الى درك الحضيض ، فالشابي من
القائلين بأهمية المضمون والشكل في الفن ، وانه لا كرامة لمعنى
في ثوب غلق ، ولا كرامة لو شئ يكسو جسما ضعلا ، وهو في ذلك
يقسول :

" والتعبير عن تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل ،
مساؤه القوة والحياة ، يقرأه الناس فيعلمون انه قطعة انسانية من
لحم ودم ، وقلب وشعور لانهم يحسون انه قطعة من روح الشاعر

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧٠

(٢) نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، منشورات مكتبة النهضة ، بيروت ،

الطبعة الثالثة ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

وعبق من عواطفه ، أو فلذة حياه من فؤاد الحياة (١)

ويرى الشابي ان الشكل الفني يجب ان يقد على قسدر
المضمون ، وأن يتناسب معه ، كما تتناسب الملابس الجيدة الصنعة
مع اجسام لابسها ، فلا فائدة من ملابس مترهل يكسو جسما ناحلا
ولا فائدة من ملابس تقيّد حرّكة لابسها ، كذلك هو الشكل الفني
يجب ان يكون على اقدار المعاني خادما لها ، معبرا عنها اجمل
تعبير ، يقول : " هذا هو الاسلوب الذي يكون دائما كضوء القمر
حينما يمثل سخط الحياة ، أو ثوران العواطف ، ويكون دائما كضوء
القمر ، حينما يمثل طمأنينة الحياة وسكون النفس ، ويكون رقيقا
شجيا كأنات ناي بعيد ، حينما يمثل احلام الحياة ، ونجوى القلوب
المتحابة ، ويكون كهيا مظلمة كقلب الظلام ، حينما يمثل بؤس الحياة
وأحزان البشر " (٢)

ويرى الشابي ان صدق الشاعر ، ودقة التصوير ، هي القياس
الوحيد للشعر ، " فالتصوير الصادق ، الذي يسريك تصورات الشاعر
أرقى من تصورات البشر ، والتعبير الفني الجميل الذي يكون قالبا
انسانيا حيا ، لذلك المعنى الذي يشمل ذلك ، هو الذي ينبغي
لك ان تبحث عن ، كلما قرأت قصيدا ، أو تلوت مقطوعا ، أو تصفحت
ديوانا ، فان وجدته فكن على يقين انك انما تقرأ شعر الحياة
وان اخطأته ، فاعلم انك تقرأ شعرا زائفا لا قيمة له فسي يسوق
الخلود " (٣)

(١) (٢) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .
١١٧/٠٠٠

ويعتد ان أوضح الشعاع مفهومه من حيث مضمون الشعر وشكله دعنا نستمع اليه يحدثنا عن الاثر الذي ينبغي ان يحدثه الشعر نفسي قارئه ، وما هي مقاييس الحكم عليه صادقاً أو غير صادق " لكي تدرك هذه الحقيقة فانظر هل هو من ذلك النوع الذي يوسع أفق الحياة في نفسك ، ويجعلها محسّ بتغيرات الوجود أكثر مما محسّ ، وتدرك من معانيه وأصواته أكثر مما ألفست أن تدرك ، وينسبك وجودك الانساني لحكمة تستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك ، ويسبح منه على نفسك ، أقول انظر فان كان من هذا النوع فاعلم انك تقرأ شعراً الهيا لا تجود بمثله الحياة كثيراً ، والا فاعلم انك تقرأ مثلاً دون ذلك" (١)

ويؤمن الشابي ان الشاعر ، متأثره بالحياة الاجتماعية ، وبالظروف الطبيعية التي تعيط به ، وبالعالم النفسي الذي يجول فيه ، لا يستطيع ان يعبر عن ذلك كله بشعر صادق ، الا اذا شعر بالمعاناة بحق ، وصد في ذلك عن احساس مرهف ، وتمثل واع بكل ما يجري " فالشاعر لا يستطيع ان يخرج عن نفسه التي بين جنبيه ، وما في هذا العالم من سحر ولذة وألم ، وما خلقت له الانسانية من فن ورأى ودين ، ولكنه حين يتحدث اليها بذلك في آثاره لا يتحدث به الا بعد ان يحيا في قلبه ، ويتوحد في حياته ويتضح بأضواء نفسه المشرفة ، فتبرز آثاره للدنيا موسومة بموسمه ومطبوعه بطابعه الذي لا يزول" (٢)

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٢٧١

(٢) ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينبوع احمد زكي ابوشادي ، الطبعة الاولى ١٩٣٤ ، صفح ٢٠٠ ، ش .

ويمد أن أوضح مقاييس الشعر الجيد ، يوضح مقاييس الشاعر الجيد فالشاعر عنده " هو الذى تقرأ شعره ، فتجده فيه انسا من لحم ودم يحيا ويتنفس ، ويشعر ويفكر ، ويجاونا بالعطف والحس والخيال ، وينسينا لحظة وجودنا المحسوس ، بما يخلعه علينا من جمال الفن وصوره ، ويرتفع بمشاعرنا فوق دنيا هذا العالم ومقدراته ، اذا وجدنا هذا الشاعر ، فلنقرأه فسي ثقة وايمان بأنه شاعر حقا . . . والشاعر العظيم هو الذى يحوق في فنه الى المصادلة بين نسب العاطفة والفكر والخيال ، والاسلوب والسوزن ، بحيث يجعل بينها التجاوب الموسيقى الذى ينسجم في القصيدة انسجام النور والعطر ، والماء والهواء في الزهرة الجميلة الياقة" (١)

وحتى يتسنى للشاعر ذلك ، يجب عليه ان ينح الحرية ، فيجد ما شاء في اسلوبه ، وطريقته فسي التفكير والعاطفة والخيال ويستلهم ما شاء من كل هذا التراث المعنوى العظيم الذى يشمل كل ما ادخرته الانسانية ، من فن وفلسفة ورأى ودين ، لا فرق في ذلك بين ما كان منه عربيا أو أجنبيا .

ب (تأثره بالمدارس الادبية المختلفة) :

ولكن كيف تحقق لابي القاسم ، مفهوم الشعر هذا ؟ هل هو وليد صادفة ؟ ام نتيجة كثرة اطلاع وتأثر بالمدارس الادبية المختلفة ؟

(١) ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينوع - احمد زكي ابو شادى - الطبعة الاولى ١٩٣٤ ، صفحة ٢٠٠
١١٩ / ٠٠٠

لا شك ان الانسان مهما بلغ من العبقرية والنبوغ ، لا يمكن أن يصوغ نظرية أو يفتق ذهنه عن اختراع ، إلا بالدراسة العميقة الواعية المدعمة بذكاء وفطنة ، للعديد من المنجزات القومية والانسانية ، فما هي المؤثرات العظيمة التي صقلت مفهوم الشابي للشعر ، وأثرت في شعره ؟ واجيب ان تجربة الشابي الشعرية قد تأثرت بما يلي :

١ - تأثره بالادب العربي القديم :

نشأ الشابي في اسرة محافظة ، فكان ابوه عالما من علماء الازهر ، تضم مكتبته العديد من الكتب الدينية واللغوية والادبية التي كانت مدرسته الاولى ، ثم انتقل بعد ذلك الى جامع الزيتونة وهو معقل الثقافة العربية الاسلامية في تونس ، وفيه تلقى علومه وثقافته ، واكب على دراسة العديد من امهات الكتب العربية ، من امثال الافاني ، والشعر والشعراء ، والكمال ، والعقد الفريد وغيرها ، كلها امدته بحصيلة لغوية ، وساعدت على اشراق أسلوبه .

٢ - تأثره بقراءاته للاداب الاجنبية وبمدرسة الديوان :

مع ان الشابي كان يجهل اللغات الاجنبية ، الا انه ألح على قراءة ما ترجمه منها ، اعلم الادب العربي في مصر ، ممن امثال العقاد ، وابراهيم ناجي ، والمازني ، وغيرهم ، فكتيرا ما قرأ لشاعر الرومانسيه "لامارتين" وقرأ ما ترجم من آثار "دى موسي" وهو جو وغيرهم ، وكان لقراءاته هذه ابعاد الاثر في تجربته الشعرية بل انه تحيز لهؤلاء ، واتخذهم في كثير من الحالات قدوة له وعقد بينهم وبين شعراء العربية العديد من المقارنات .

وتأثره بمدرسة الديوان واضح كل الوضوح فمفهوم الشعر عنده لا يختلف كثيراً عن مفهوم الشعر عند العقاد .

٣ - تأثره بجماعة أوصلو :

تأثر أبو القاسم الشابي تأثراً مباشراً بجماعة "أوصلو" تلك المدرسة الأدبية التي أقامها الدكتور أحمد زكي أبو شادي في سبتمبر ١٩٣٢ ، وتمتاز هذه المدرسة بدعوتها للجديد ، وقد ضمت في عضويتها العديد من شعراء العربية وأدبائها ، في مصر وغيرها من بلاد العرب ، انتسب أبو القاسم إلى هذه الهيئة التي طالما قرأ مجلتها - أوصلو - ووجد فيها ما يروى ظمأه في تطلعه نحو الجديد ، ونشرت له هذه المجلة بعض قصائده قبل أن ينتسب إلى عضويتها ، ولكنه سرعان ما اشترك فيها ، وقبول اشتراكه بالترحيب ، وهو يروى قصة علاقته مع "أوصلو" في رسالة بعثها إلى صديقه محمد العلوي يقول " أما علاقتي أنا "أوصلو" فقد حدثتك في رسالتي السالفة ، بأنني وجهت لها قصيدتين ، ومعلم الاشتراك ، وطلبت من صاحبها أن يوجه إليّ الأعداد الأولى منها ، وقد ورد عليّ كتاب منه بعد ذلك ، وطيه معلم الاشتراك نفسه قائلاً " انه يستميجني عذراً في أرجاعه لان المجلة توجه إليّ كهدية خالصة ، وصحبته ورقه مطبوعة فيها طلب العضوية لجمعية "أوصلو" وطلب مني تميرها وأعضائها وتوجيهها حتى يضمن اسمي في ثبت أعضائها ، كما طلب مني أن أرسل صورتي لتتشر بالمجلة مع شعري ، وقد ضمن رسالته من سمحت به نفسه من شئ أعجاب ، كما أهدى إليّ نسخة من

ديوان له اسمه " اشعة وظلال " ووجه التي الاعداد الاولى من
من المجلة " (١)

وقد ربطت ابو القاسم صداقات حميمة بعدد من اعضاء
هذه الهيئة من امثال ابراهيم ناجي ، وعبد العزيز عتيق ، واحمد
زكي ابوشادي . وكان ابوشادي شديد الاعجاب بعبقرية الشابي
الشعرية ، ومما يظهر مدى اعجابه طلبه من ابي القاسم ان يكتب
مقدمة ديوانه " الينبوع " الذي صدر في عام ١٩٣٤ في نفس العام
الذي توفي فيه الشابي .

كما كان ابوشادي يزمع نشر ديوان ابي القاسم - اغاني
الحياة - وقيل أن أبا القاسم كان ينوي ارسال ديوانه الى ابي
شادي في نفس اليوم الذي توفي فيه .

وعندما توفي الشابي كان مجموع ما نشره من شعره في
مجلة " أوصلو " اربع عشرة قصيدة ، وثلاث مقطوعات ، كان آخرها
قصيدة " ارادة الحياة " و " نشيد الجبار " (٢)

وكان لهذه الجماعة اكبر الاثر في تعريف ابي القاسم
للعديد من قراء العربية ممن يقرأون مجلداتهم .

ويسرى الدكتور محمد عبد المنعم خلفي ، ان تأثر الشابي
بهذه المدرسة كان واضحا في شعره اذ أخذ فكرة قصيدة

(١) من رسالة بعث بها ابو القاسم لصديقه محمد الحليوي ، نشرت في مجلة الفكر
التونسي ، أوردها ابو القاسم محمد كرو ، في كتابه آثار الشابي وصداه في
الشرق ، ص ٣٥ ، ٣٦
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

— ارادة الحياة — من قصيدة لابي شادى عنوانها — النهضة اراده —
وكذلك قصيدته — عذبت انت ٠٠٠ الخ — تجاوب فيها مع قصيدة
ابي شادى " عروس المأتم " ومطلعها :

عذبة انت في الخفاء وفي الجهد ر ، وفي الهجر يا اغاني الظالم

وانه تجاوب في موسيقاه في قصيدته " الصباح الجديد "
التي مطلعها :

اسكتي يا جراح أسكتي يا شجون

مع قصيدتين ، لابي شادى أولهما ، السوداع ومطلعها

انتهب يا شعاع نبخر قلبي الحزين

وثانيهما قصيدته " بعد الصيف "

اضحكى يا رمال من هدير المياه

فقد تجاوب الشابي مع هاتين القصيدتين في الموسيقى والصور
كما تجاوب معهما كذلك الشاعر ابراهيم ناجي ، وكان الشابي وناجي
معجبين بكلتا القصيدتين " (١)

اما الدكتور محمد مندور فيرى ان ابا القاسم كان اقوى جماعة
"أوبللو" طباقة يقول " اننا نستطيع ان نبلور شخصية أبي القاسم
في انه كان روحا ثائثه ، ومن هذه الروح شعره الذي ربما
كان اقوى هذه الجماعة طباقة شعرية . وحدة عاطفية ، وثورة روح ،
وان تكن تلك القوة الضخمة قد ذهبت معظمها — لسوء الحظ — في

(١) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه
الحلقة الاولى ، دار الطباعة المحمدية بالازهر بالقاهرة ، ص ٢٨٥ .

مصارعة ذلك الممرض المميت الذى عاجل هذا الشاعر ، وهو لا يزال
فقر الشباب ، ولم يفارقه حتى قضى عليه . (١)

٤ - تأثره بشعراء المهجر :

كان ابو القاسم شديد الشغف بالقراءة ، فهو ان كان قد
قرأ الادب العربي القديم من مصادر اوليه ، وقرأ الادب الاجنبى
المترجم ، وقرأ ما انتجه شعراء ومدرسة "أوبللو" ، وما انتجته
شعراء مدرسة الديوان ، وتأثر بكل ذلك ، اكتب على دراسة الادب
المهجري ، وتأثر به ايضا ، فأنت تلمس عنده النقد اللاذع ، والحدب
على الانسانيه المعذبه ، والسخرية المره بالحياة الراكدة ، وهذه
اهم ما امتازت به المدرسة المهجرية .

ويرى بعض الدارسين ان تأثير جبران في الشابي كان واضحا
حتى ان الاستاذ خليفة محمد التليسي ، ألف كتابا عنوانه " الشابي
وجبران " واستشهد بالعديد من النصوص لكل منهما يثبت تأثر
الشابي بجبران .

ويرى ان ثورة الشابي على شعبه الذى يراه غير جدير
بالحياة في قوله :

لست يا شيخ للحياة بأهل انت داء يبيدها وتبيده

وقوله :
أيها الشعب انت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس

(١) د . محمد مندور ، الشابي روح ثائرة ، مجلة المجلة القاهرة ، ع ٦ يونيو
١٩٥٧ ، وردت في كتاب دراسات عن الشابي ، اعداد ابو القاسم كرو
ص ٩٦ .
١٢٤ / ٠٠٠

انصاعاً مآخوذة من جبران القائل "والحياة عنم يرافق الشبيبة ،
وجد يلاحق الكهولة ، وحكمة تتبع الشيوخ ، اما انتم يا بني أُمي ، فقد
ولدتم شيوخاً عاجزين ، ثم صغرت نفوسكم ، وتقلصت جلودكم ، فصرتم
تتقلبون على الاوحال ، وتترامون بالحجارة . " (١)

ويقول الاستاذ التليسي ايضاً ان تأثير الشابي بجبران لم
يقتصر على المضمون دون الشكل ، بل تعداه الى الشكل الفني والصياغة .
يقول جبران :

" من يهوى النور فالنور يهواه "

ويقول الشابي :

ومن ناحت النور احلامه يباركه النور أني ظهر

ويقول جبران في غربته بين قومه " ثم التقى برعط من الشيوخ ،
فيوثون نحوى بأصابع وثيقة قائلين : هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن
والغبلان . وذلك ما قاله اعداء الشابي فيه ، وهي عبارة جبرانية نظمها
في نسق رائع .

وقد اضاع الرشاد في ملعب الجن فيا يؤسه اصيب بمس

ويرى كذلك ان التفني بالفساد الذي كثر في شعر الشابي انما هو
نخمة جبرانية ، وينتهي الاستاذ التليسي بنتيجة يقول " والمشابهة بينه وبين
جبران اعظم من ان توحىها المصادفة او وقوع الحافر على الحافر ، ولكنها
المشابهة التي تتيحها التلمذة ، تلمذه من عكف على جبران " (٢)

والباحث يتفق مع الاستاذ التليسي في كثير مما قال ، ولكنني
أحب ان اضيف ان كلا من جبران والشابي كانا تلميذين مخلصين

(١) خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ،
الطبعة الثانية ١٩٦٧ ، ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٣ - ٥٤ . ١٢٥ / ٠٠٠

للمدرسة الرومانسية ، فالتغني بالغاب والثورة والتسرد ، وتجيد الحياة والذاتية المفرطة في الشعر ، ليست خاصية في شعر جبران فحسب ، بل هي من سمات المدرسة الرومانسية التي انتمى اليها كلاهما

كما ان الاستاذ ابو القاسم كرو ، أكد حقيقة اثر جبران البارز في الشابي ، وعرض نماذج لكلا الشعاعين تؤيد مذهبه .

قال جبران :

وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرحى فان صار جسما ملأه البشر

ويقول الشابي :

وما السعادة في الدنيا سوى حلم ناء تضحى لها ايامها الاعم

ويلاحظ ان صدرى البيتين متشابهان ، وان الشابي لم يغير سوى اللفظ الاخير ، وكذلك يبدو التشابه واضحا في عجز البيتين الا ان الشابي كان اعمق من جبران ، وأصدق تعبيرا منه للسعادة في واقع الناس . (١)

ولكن هل كان ابو القاسم بعد هذه الامثلة التي ساقها كل من الاستاذين التليسي ، وكرو ، تلميذا فحسب للمدرسة الرومانسية ، وان ما قاله لم يعد الا تكرارا لما قاله جبران أو نعيمه ، دون اصالة ودون ان يسكب في شعره من روحه وفنه ؟ دعونا نستمع الى ما قاله الدكتور درويش الجندى " وممن تأثر بسنزة المهجريين التصويرية خان مصر والشام ، أبو القاسم الشابي

(١) ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ٥٨ .

التونسي ، ولكن صورته يغلب عليها الصدق والوضوح (١).

أما الدكتور محمد مندور فيقول في هذا المقام "وأنا بعد لا أنكر ما لا بد منه من أن الشابي قد طالع الكثير من الشعر العربي القديم والحديث ، بل من الآداب الغربية المترجمة إلى اللغة العربية ومن هذه المطالعات ، تكونت ثقافته الشعرية والانسانية الصامة ، كما تثقفت سليقته ولكن الذي أنكره هو أن يكون أبو القاسم الشابي ، قد تأثر بأحد تأثرا مباشرا ، بقدر ما تأثر بطبعه الخاص وبقريته الفريدة المتميزة ، وروحه الثائرة ، وصراعه الدائم مع ما شقيت به حياته من آلام وجحود ونكران فضلا عن المرض القاتل الذي يصارعه في بطولة وتحد حتى آخر رمق في حياته ، وأنا لنحس في شعره روح الأبطال الشهيد" (٢).

وبعد هذه هي عناصر تجربة أبي القاسم الشعرية : روعة طبعه ، رهف حسه ، قراءاته المتعددة للأدبين العربي والاجنبي .

٢ - منزلته الشعرية :

أبو القاسم الشابي شاعر عبّر عن حسّه ، ولعلّه لم يعتمد أن يكون شاعرا ، إنما ساقه إليه رهف حسّه ، وتوقد مشاعره ، مع اقتداره على التعبير وتمكّنه من نقل كل ما يعتلج في نفسه إلى الآخرين ، فيشاركونه فيه .

(١) د . درويش الجندی ، الرمزية في الادب العربي ، مكتبة النهضة المصرية بالجالة ، ١٩٥٨ ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٢) د . محمد مندور ، مقال نشره أبو القاسم كرو ، في كتابه دراسات عن الشابي ص ٩٧ .

وكان أبو القاسم من زعماء التجديد في الشعر العربي ،
 يؤكد ذلك قول الدكتور مندور " انه كان اقوى جماعة أو بطلو .
 وتجاوز أبو القاسم بشعره حدود تونس ، ليصل الى مسامح
 القارئ في كل انحاء البلاد العربية ، ولعلله الشاعر العربي
 الوحيد في شمال افريقيا كلها الذي يصل الى مثل هذه المرتبة
 ويسمو الى هذه المكانة .

ويرى بعض الناقدين ان الشابي لتونس كالمتمني للعراق ،
 وكالمعري لسوريا ، وجبران للبنان ، وشوقي لمصر . (١)

واتفق الكثير من الادباء والنقاد العرب على تمجيد الشابي
 والاشادة بعبقريته ، فالدكتور أحمد زكي أبو شادي يقول " ان لابي
 القاسم الشابي روائع كثيرة ظفرت بمجلة أو بطلو ومجلتها بالقسط
 الاوفر منها ، وانه لتعصب المفاضلة بين قصائده هذه فجميعها
 يتسم بالجمال الفني الانيق بكامل عناصره ، ان شعر الشابي هو
 شعر العبقرية والتفوق ، فله قدسيه نورانيه يصعب تعريفها ،
 وسواء ادينا فجرها أو شروقها ، لانها على اختلاف منازلها تتألق
 بالجمال ، وتنم عن رسالة سامية ، وأبو القاسم الشابي هو احمد
 أولئك الافئدة العاصمي الروح ، الذين لم يسهروا النقد الموضوعي
 فحسب ، من ناحية الطاقة الفنية القوية ، بل بهروا كذلك مقاييس
 المثالية الرفيعة ، من خلقية ووطنية وانسانية ، وكانت معجزتهم
 الازدواج بين هذه المزايا وفي الانسجام التام بينها ، وهذا قلما

(١) أبو القاسم كرو ، ما يجب نعمله الشابي ، مقال ورد في كتاب دراسات عن

الشابي للمؤلف نفسه ، ص ٨٧ . ١٢٨ / ٠٠٠

يكون إلا لصفوة الصوفيين . (١)

ويرى بعضهم ان الشابي كان شاعرا كاملا ، أحب الجمال ،
وأحب الحياة ، وأحب وطنه ، وأحب الكون ، وأحب الحرية ، وكان
هذا الحب ممتازا في شاعر ممتاز ونفس ممتازة ، فهو حسب
يسمى فوق الالم ، وفوق الاضطهاد ، وفوق الجسد ، هو حسب
يتخطى حدود تونس الى مصر الى الشام الى العراق ، فلا يلبث
ان يكون انسانيا شاملا وعالميا فير محدود . (٢)

وللشاعر المرحوم - عزيز أباظة - رأى في الشابي لا يقل عن
آراء زملائه " ان الشابي ليس من الشعراء الذين يقذف بهم في
هذه الدنيا ثم يحملون منها ، فلا تحسبهم هذه الدنيا ، ولكنه
على النقيض من قلائل الشعراء الذين لا تستطيع الدنيا الا ان تؤمن
حين يشرقون عليها ان شيئا ذا خطر دب فيها ، أو خلق في
أجوائها " (٣)

أبو القاسم شاعر ذو سمعة عالمية :

ترجم العديد من شعر الشابي الى الفرنسية ، ونقلت له
مجلة " ابلا " الفرنسية ثلاث قصائد في أعدادها السادس والثلاثين

-
- (١) احمد زكي أبو شادي ، أبو القاسم الشابي ، مقال أورده أبو القاسم كرو
في كتابه اثار الشابي وصداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة
والتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦١ ، ص ١٧٠ - ١٧٤ .
 - (٢) ابراهيم ناجي ، اننا نبحث عن الشاعر الكامل كما نبحث عن المعجزة ،
المرجع السابق ، ص ٢١٢ .
 - (٣) عزيز أباظة ، البحث الجديد ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ .
- ١٣٩ / ٠٠٠

والسابع والثلاثين والسادس والأربعين . كما ترجمت بعض قصائده
إلى الانجليزية والسويدية ، وأصدر أبو القاسم محمد كرو كتاباً
عنه بالفرنسية . (١)

فهذا الشاعر الإيطالي " قويدو ميدنييه " يناجي زملاءه
الشعراء في كتابة " افريقيه " فاذا ما تحرك الغيـل ودأبت
الرياح ، فأنا لا أفكر إلا فيك يا شابي ، أنت يا شابي كسان قلبك
يتسأل ، ويتطـر عند رؤية الطبيعة ، وهي شائرة ، والبحر وهو
متلاطم الأمواج " (٢)

لذا يرى بعض الناقدين ، أن أبا القاسم قد تجاوز حدود
وطنه ، ليضحي شاعراً عالمياً ، خاصة في أشعاره التي قالها
في مرحلة نضجه الفني ، فهو مثل طافور ولامارتين الذين
يقولون ويكتبون ، لتستمتع إليهم جميع أمم العالم على اختلاف سنتهم
وأجناسهم وأديانهم " (٣)

* * *

-
- (١) أبو القاسم محمد كرو ، دراسات عن الشابي ، ص ٤٢ .
(٢) أبو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، ص ١٣ ، ١٤ .
(٣) إبراهيم ابورقمه ، حياة أبي القاسم الشابي ، مقال ورد في كتاب
دراسات عن الشابي ، أعدد أبو القاسم كرو ، ص ٧٢ .
١٣٠ / ٠٠٠

الفصل الثاني

أهم أغراض شعره وخصائصه الفنية

طرق أبو القاسم العديد من أغراض الشعر قديمه وحديثه ،
ولكن أهم القاسم كان ينأى بالشعر ان يكون أداة مدح يحمله لسيادة
القلم ، ليمثلهم وينال من اعطياتهم .

لا أنظم الشعر أرجو	به رضا أمير
بمدحة أو رشاء	تهدي لرب السرير
حبي اذا قلت شعرا	ان يرتضيه ضميري
لا أقرض الشعر أغني	به اقتناي نوال
الشعر ان لم يكن في	جماله ذا جلال
فانما عو طيف	يسعى بوادي الخلال
يقضي الحياة طريدا	في ذلة واعتزال

لذا خلا ديوان أبي القاسم من أية قصيدة في المدح .

أما الهجاء فلا يحتوى على اية قصيدة هجا فيها شخصا
بمینه ، بل تجد الكثير منها في هجاء شعبه ، أو هجاء أعدائه ،
وقد سبق ذكر نماذج منها حين عرضت لموضوع - علاقة الشابي
بشعبه - .

الرشاء :

الباحث في ديوان أبي القاسم لا يجد فيه الا قصيدة واحدة

في الرشاء ، هي تلك التي رثى فيها والده .

وقد قدّم لها الشاعر بقوله " هي صرخة من صرخات النفس ،
المملوءة بالاحزان ، والذكريات وشظية من شظايا هذا القلب المحطم
على صخور الحياة ، قلتها في أيام الاسس التي تلت نكثتي بوفاء
الوالد رحمه الله . (١)

ولهذا يعتبر الرثاء من اقل أغراض الشعر التي طرقتها الشاعر
الا ان الدكتور شوقي ضيف يرى ان الشاعر كثيرا ما رثى نفسه ، يقول
" لمّلّ شاعرا عربيا لم يرث نفسه وبكىها ، كما رثى في عصرنا نفسه
وبكاهها ابو القاسم الشابي ، الذي وصف به مرض القلب ، وهو في
رمان الشباب ، فماش يبكي نفسه ويندبها ندبا حارا لا في مرثيه
أو مرثيتين ، وانما في ديوان حافل بألوان الشجن والاسى ، وصف
فيه كيف أوصد المرض الابواب والنوافذ عليه ، فلم يعد يرى الا عابثته
وحفرته ، بل ان هذا الصير الذي لا بد وافد عليه ومنتته اليه اصبح
يظلمه ، ان يرى فيه منجاته من أصحابه وآلامه ، وعو يسمي هذا
الصير " الصباح الجديد " وفيه يقول :

أسكتي يا جسراح	واسكتي يا شجون
مات عهد النضواح	وزمان الجنسون
وأطلّ الصباح	من وراء القرون

فساعة الخلاص قد دنت ، وأن له ان يدفن آلامه ، ويفترق
أحزانه في خضم الانهائية ، فقد دعاه الصباح ، ولم يعد الظلام
يستطيع ان يلفّ جسده في ظلال الالم ، انه راحل وهو سعيد برحيله . (٢)

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ٩٥ .

(٢) د شوقي ضيف ، الرثاء ، سلسلة فنون الادب العربي - الفن الغنائي ، دار
المعارف ، ١٩٥٥ ، ص ٣٤ .
١٣٢ / ٠٠٠

السوداع السوداع	يا جبال الهمم
يا ضباب الاسى	يا فجاج الجحيم
قد جرى زورقي	في الخضم العظيم
ونشرت القلاع	فالسوداع السوداع

ومن أهم الافراض التي طرقها الشابي في شعره ، هو شعره
في الحياة والموت وقد سبق التعرض له حين تحدثت عن فلسفة
الموت عنده .

وشعره الوطني ، الذي ذكرت اطرافاً منه حين عرضت لموضوع
- علاقة الشابي بشعبه - وهذا الشعر يزخر بالثورة على المستعمرين ،
وفيه بحث شعبه على الثورة ويدعوه الى حياة كريمة ، وهو من
اشهر شعر أبي القاسم ، امتاز بالصدق والعنف والحدة ، مما جعل
الدكتور شوقي ضيف يعتبره أصدق شعر وطني قاله شاعر عربي معاصر
يقول : " وهذا الشعر السياسي أو الوطني كان منتشرًا في كل بلاد
الشرق الاوسط : في مصر والشام والعراق ، ولكن شاعرا لم يبلغ في
هذه البلدان ما بلغه الشابي في تونس من حدة الاحساس وعنفه ،
حقا نجد عن حافظ والرصافي واضاربهما تعبيرا سياسيا أو وطنيا
مستحدثا في لغتنا ، ولكننا لا نجد عندهما هذا الاحساس الحاد الذي
يجعل الشاعر يحس في أعماقه آلام أمته وأوجاعها تلقاها المستعمر
الظالم ، فينتفض ويزار في وجه الفاضل زئير الماصفه ، على نحو ما
يزار الشابي " (١)

(١) د . شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، ص ١٥١ .
١٣٣ / ٠٠٠

ويبتس غرضان رئيسان ، أرى أن أعرض لهما في هذا الفصل هما
شعر الطبيعة وشعر الغزل .

١ - شعر الطبيعة :

حين تصدى الشابي للطبيعة يصفها ، لم يقف منها موقف المشاهد
يصف مناظرها الخارجية ، إنما تعمقها وشخصها ، وكثيرا ما ناجاها
وحاورها ، فملكته فلسفة الحياة ، وعلمته الطهر والنقاء ، ثم هو كثيرا
ما لجأ اليها عندما أهملت عليه الحياة ، وحين لم يفهمه أهلها ،
فاعتبرها محرابه الذي يتمجد فيه ، ويبتدى فيها الس اسرار الكون ،
ومفاتيح الحياة ، والشابي في هذا يتفق مع اساتذة المدرسة الرومانسية
من امثال روسو ، وبيرون ، وشاتوبريان ، يرى الطبيعة مأوى ومسكنا
لروحه ومشاعره التي تأت وتألت ، وهو اذا أوى إلى احضان الطبيعة
انما يفعل هذا زهدا في دنيا الناس ، وهربا بمشاعره من أن
تضطدم بحياة اليوم المادي ، فهو يرى ان النشوة التي تمنحها الطبيعة
هي اجمل ما تمنحه كئوس الراح .

مالنا والكؤوس نطلب منها نشوة ، والفراغ سحر وسكر
خلنا تلك فالربيع لنا سقا ق ، وهذا الفضاء كأس وخمر
نحن نغدو بين المروج ونغدو ونغني مع النسيم المغني
ونناجي روح الطبيعة في الكو ن ، ونصغي لكونها المتغني

والشابي كثيره من شعراء الرومانسيه ، يلجأ للطبيعة كراهبة
وبفضا للإنسان ، كأن يجد في الجبال غذاء لشموه ، وفي الغاب
صدر متعته ، وفي رؤيه المدن وسامع ضجيجها أذى لسمعه وبصره .

مشق الشابي الطيممة ، ومنها استمد استعاراته وتشبيهاته ،
يستشهد بها في ثنايا الكثير من قصائده ، فإذا وصف حبيبته فهي
مذبة كالصباح ، وكالسماء الضحوك وكالليلة القمر .

وفي قصيدته " ارادة الحياة " يدخل مع الطيممة في حوار ،
يتعلم منها القنوه :

ودمدت الريح بين الفجاج وفوق الجبال وتحت الشجر
إذا ما طمحت إلى فاية ركبت المنحدر ونسيت الحذر

ثم يسأل الأرض " يا أم هل تكرهين البشر " ، فتجيبه :

أبارك في الناس أهل الطميح ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يمشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر

وهو ان كان ناجى الرياح ، وخاطب الأرض فقد همس في اذن الدجى
سائلا :

سألت الدجى هل تعبد الحياة لمن أذبلته ربيع العمر
فلم تتكلم شفاء الظلم ، ولم تترنم عذارى السحر
ولكن ما الذي أجابه ؟

وقال لي الغاب في رقة محببة مثل خفق الوتر

ألا ترى ممى كيف كان الشابي يشرك الطيممة في كل شأن من
شئونه ، يدير معها حوارا . أبطاله الأرض والرياح والدجى والغاب ،
كل يجيب عن سؤال ، لقد سخر الشابي الطيممة لتوضح فلسفته ونظريته
إلى الحياة .

وهو اذا حزن يسقط احزانه على الطبيعة ، فهي تضحك لضحكه
وتبكي لبكائه .

ما سكون المساء الا أنين ونشيد الصباح غير نجيب

والشابي الذي عانى المرض ، وفكر كثيرا في الموت الذي سينتهي
حياته رأى الصحراء ساهمة حزينة ، رآها تفكر في الموت والحياة ، كما
يفكر هو فيها ، نستمع اليه يقول " جمال الصحراء الذي يمتد أمامي
جمال ساهم محمم ، ولقد يخيل اليّ أحيانا انه يفكر فيما وراء هذا
العالم الصاخب الموار ، في معاني الفناء والموت والظلام ، لقد يبلغني
ألوهم أحيانا ان احبه نفا شاعره ملوله ، تتاجي في حمسى
سقام احلامها الحزينة الصامتة الموشحة بأربعة الموت. (١)

وهو في قصيدته النبي المجهول ، يود لو ان له قوة الطبيعة
بمظاهرها المتعددة ، قوة رياحها ، وقوة شتائها ، قوة عواصفها ، وقوة
اعاصيرها يكملها على رأس شعبه الذي تشكر له .

ليتني كنت كالرياح فأطوى كل ما يخفق الزهور بنحسي
ليتني كنت كالشتاء أغمشي كل ما أذبل الخريف بقبرسي
ليت لي قوة العواصف يا شعبي فالقي اليك ثورة نفسسي

وحين اعتزل شعبه لجأ الى الطبيعة ، لتقوم سيولها بحفر رسمه :
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلوى تخط السيول حفرة زمسي (٢)

(١) نصرلآبي القاسم الشابي ، أورده محمد خليفة التليسي في كتابه الشابي وجبران
ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
١٣٦ / ٠٠٠

من النماذج السابقة ، لاحظنا كيف شخص الشابي الطبيعة وجسمها
فاذا هي حبة ، ناطقة فيلسوفه ، واذا هي باكبه حزنه أوضاعه
مشقة ، أوتوية جبارة .

والليل بكل ما فيه من جمال ورهبة ، من هدوء يمتث في
النفس التأمل ، وفي الروح الاشراق ، ويشير في النفس الكمية المخاوف ،
هذا الليل كان له مع أبي القاسم شأن :

أيها الليل يا أبا البؤس والاهوا ل ، يا عيكل الزمان الرهيب
فيك تجش عرائس الأمل المذ ب ، تصلي بصوتها المحبوب
فيشير النشيد ذكرى حياة حبتها غم دهر كيب
انما يا ليل ذرة صعدت للكون ، من سوطي* الجحيم الغيوب
فيك تنموزنا بق الحلم المذ ب ، وتذوي لدى لهيب الخطوب
بهجع الكون ، في طمأنينة المصفور ، طفلا بصدرك الغريب (١)

لقد كان أبو القاسم يحفل بالصورة الفنية ، فيقيمها لوحة يتخيلها
الذعن ، وتكاد تراها العين من مثل قوله :

فيك تجش عرائس الأمل المذ ب ، تصلي بصوتها المحبوب
وقوله :

بهجع الكون في طمأنينة المصفور ، طفلا بصدرك الغريب

هذه هي الصور التي حفل بها ديوان الشابي ، والتي تعتبر
من أهم خصائصه الفنية .

(١) أبو القاسم الشابي ، أغاني الحياة ، ص ٢٥ .

وتجد روعة الصورة في قصيدته " الجنة الضائعة "

كم من عهد عذبة في عدوة الوادي النضير
كانت أرق من النسيم ومن أفاريد الطيور
والذ من سحر الصبا في بسمة الطفل الفيرير
أيام كانت للحياة حالة الروض المطير
وطهارة المسوح الجميل ، وسحر شاطئه المنير
وداعمة الصفور ، بين جدار أول المساء النسيم (١)

فأنت واجد في هذه الابيات التي جانب الصور المتلاحقة ،
رنين جرس المبارات المذب ، وفيها رقة تتفرع عن نبيل عاطفه واحساس
ثم ان اللفظ على قدر المعنى ، فلا حشو ولا زيادة .

والطبيعة في شعره لم تظفر بقصائد منفردة ، فلا تجد في
ديوانه قصيدة بعينها يصف فيها غابة أو نهرًا ، أو اشراقة الشمس ،
أو أقول نجم ، بل نجد ذلك في ثنايا قصائده على تعددها ، ومهما
اختلفت اغراضها . ولعل القصيدة الجيدة التي خصصت لذلك ، قصيدته
من " أفاني الرعاة " (٢) . وهذه القصيدة من أفني قصائد الشابي
بالصور الجميلة المعبرة ، وفيها تتجلى قدرة الشاعر الموسيقية ، فأنت حين
تسميها تطرب لالوان ثلاثة من الفن : تطرب للشعر المذب ،
والموسيقى الطرية ، والصورة الجميلة ذات الالوان الخلابية .

(١) ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، ص ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

يقول :

أقبل الصبح يغني للحياة الناعسة
والربى تحلم في ظل الفصون المائسة
والصبا ترقص أوراق الزهور الباسسة
وتهدأ في النور في تلك الفجاء الدامسة

ألا تسرى روعة الصورة ، ألم تطرب لغماء الصباح ، يردده للحياة
الوسنانة التي لم تكد تصحو من نومها ، ألا تحس معي جمال الربى
تشرع عليها ظلال الفصون الرائحة الغادية يغازلها النسيم ، والصبا
ذلك النسيم المحظوظ الذي تغنى به شمراء العريية في مختلف
عصورهم ، ألا تنراه يحرك أوراق زهور يمت ، والنور هل كان ساظما
في ساعات الصباح الأولى ؟ لا بل كان يسير متهاويا ، ينفذني
الظلام ويهدد الحلكة .

أقبل الصبح جميلا ، يملأ الأفق بهاء
تغطي الزهر والطيور وأمواج المياه
قد أفاق المالم الحي وغنى للحباء
فأنبقي يا خرافي ، وهلمي يا شبيه

لقد اجاد شاعرنا حين صور بأسلوب أخاذ طلوع الفجر ،
وبزوغ الشمس وتنفس الحياة ، وديبب الفاس ، واستقبالهم الحياة
باشراقة وأمل ، وهو يعتمد ذلك ليصور لنا كيف استقبلت الطيور
والزهور والامواه الفجر ، وغنت له ، صورة جميلة يتخيلها القارئ
كأنها تدب أمامه ، لو سمعها رسام لقام بتحويلها من صورة لفظية

تسميها الاذن وتطرب ، وميها العقل فيكبر الطبيعة ويسجد للخالق
الى صورة مرئية تراها العين ويدركها الذهن .

واتهميني يا شياهي بين أسراب الطيور
واملكني الوادي ثغاب* ومراحا وحبــــــــــــــــور
واسمعي همس السواق ، وانشقي عطر الزهور
وانظري الوادي يفشيه الضباب المستنير

ويستمر الشاعر فيقيم صورة جميلة له ولخرافه تنبئه في الوادي
بين أسراب الطيور ، وهمس السواقي .

وهكذا يستمر الشاعر في مقاطع القصيدة العشرة ، وأبياتها
الاربعين يرسم في كل مقطع ، وفي كل بيت صورة جميلة تبين ما فطرت
عليه ذاته من خيال مرهف ، نستمتع اليه يقول :

واسمعي الريح تنغي في شمابخ الجبال

ألم يجمال الشاهر الرياح تنغي ؟ لقد أضفى على الرياح

الحياة ، ومنحها حق الفناء .

والشاهر الذي يديم التفكير ، ويطل التأمل في الكون وأسراره

كأنني به قد أراد ان تشاركه شياحه وخرافه تفكيره .

وامضي الاعشاب والافكار في صمت الظلال

والشابي الذي لا يلبث ان يعمر قلبه السرور ، الا ليكدره

الحزن يخاطب شياحه قائلا :

لن تملي يا خرافني في حمى الغاب الظليل

فزمان الغاب طفل لالعاب ، عذب ، جميل

وزمان الناس شيخ عابس الوجه هيل

انظر الى الصورة ، ألم يجتم الشاعر " زمن الغاب " ويجعل
منه طفلا صغيرا ؟ وزمن النفس فيجعل منه شيخا عابس الوجه همل
انها القدرة على التصوير والتجسيم التي امتاز بهما الشاعر .
وتجد عند الشاعر قدرة بارعة على حسن التمييز بأسلوب شيق ،
لقد عبر عن وقت العودة قبل الفروب بقوله :

فاذا طالت ظلال الكلا الغض الضئيل
فهلمي نرجع المسمى الى الحي النجيل

لقد عبر الشاعر بطول الظلال عن الوقت قبيل الفروب ، عبر
عنها بصورة جميلة ابتدعها خياله ، صورة الكلا وقد طالت ظلاله .
وبعد هل تعجب اذا قرر أحد الناقدين ان هذه القصيدة
" هي أعرق شعر الطبيعة في الادب العربي " (١)

٢ - الفسزل :

اختلف كثير من الدارسين للشابي ، حول حقيقة حبه ، فهناك
من يرى ان الشابي قد أحب حبا حقيقيا ، وان هناك فتاة تبلسست
فؤاده وهام بها ، ومن هؤلاء أبو القاسم محمد كروالذي يقول " أن
قصة حب الشابي لم تصرف فصولها بعد ، ولكنه مع ذلك مقتنع كل
الاقتناع بأن الشابي أحب في حياته حبا حقيقيا صادقا ، وأنه أغرم
بتفاته معينة غراما عنيفا مشهورا ، وبأن تلك القصائد الغزلية الحسان

(١) خلفه محمد التليس ، الشابي وجبران ، ص ٧٩ .

ويذهب هذا المذهب الاستاذ السنوسي يقول " ان له حبيبة ماتت وتركه يندب " جدول الحب " ولنا علم يقين انه أصيب بمرض القلب من تلك الصدمة " (٢)

وهناك من يذهب إلى أن الشابي لم يحب حبا ماديا ، وإنما أحب العالم المملوء المثالي ، فهو حب ميتا فينثقي " واني أظن ظنا يقرب من اليقين أن الشابي لم يحب حبا ماديا ينفي به قضا وطير أو وصال حبيب ، بل كان قلبه يخفق بحب روحي علوي ، يتشعل في مشاهد الطبيعة الساحرة ، وفي مناظرها البهيبة ، وكان حبه معنيا بالقيم الروحية من جمال ، وفن وخير . ما إلى ذلك من هـــــــــــــ
الروحانيات" (٤)

- (١) أبو القاسم كرو ، الشابي حياته ، شعره ، ص ٩٦ .
- (٢) زين العابدين السنوسي ، أبو القاسم حياته ، أدبه ، تونس ١٩٥٦ ، ص ٣٢ .
- (٣) د شوقي صيف ، دراسات في الأدب العربي المعاصر ، الطبعة الثالثة ، ص ١٤٧ .
- (٤) أبو القاسم محمد بدرى ، الشاعران المتشابهان ، الشابي والتيجاني ، ص ٥٩ .

أما صديقه الأستاذ محمد الحليوي يقول " ان الشابي أحب المرأة كجنس ، وليس هناك واحدة بعينها ودليله ان الشاعر لا يذكر امرأة مخصوصة ، ولا واقعة بعينها ، وانما يذكر المرأة والحب ، وسيف عليها من روحانيته العميقة كل المعاني الرقيقة " (١)

ويرى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ان حب الشابي كان حبا عذريا " وقد ظهرت هذه النزعة الصوفية في الحب عند شعراء "أوبالو" وأخذوها تيارا عاطفيا ، لتمثيل فلسفتهم العاطفية الملوثة بالحب والحرمان والالم والعذاب ، والضنى والارق ، فالحسب عندهم متعة للروح لا للجسد ، وهذه نزعة الرومانتيكيين السائدة فُتت بها شعراؤنا ، وقصيدة الشابي " صلواتني هبكل الحب " من أمثلة هذه الظاهرة الفنية " (٢)

والاستاذ محمد خلفه التليسي اكثر من اهتم بموضوع المرأة في شعر الشابي ، حيث أفرده في فصل في كتابه " الشابي وجبران " وفيه يرى ان الشابي لم يحب في حياته امرأة معينة ، وانما كان يتغنى بالمرأة كمثل أعلى ، دفعه الى ذلك ما لاحظته من انحطاط شأن المرأة في الادب العربي ، وانها لم تكن خلال العصور الا قطعة أثاث تتنقل من بيت أبيها الى بيت زوجها ، لا يهتم بها الرجل الا كجسد ومتعة ، والشابي الذي كان رومانسي الاتجاه والمذهب ، احب المرأة ونظر اليها نظرة العفة والتصوف فاذا المرأة في منزلة المعبودة ،

(١) محمد الحليوي ، مع الشابي ، (سلسلة كتاب البحث) تونس ١٩٥٥ ، ص ٢٤ .

(٢) د . محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب العربي الحديث ومدارسه ، ص ٢٧٨ .

حاول الشابي بهذا ان يقبل عثرتها ، وان يسموها عن جسد يحسن
ويجس ، الى روح طاهرة تحمل في طياتها أنبل المماني ، فهي الام
والشقيقة والصديقة . وفيها تتمثل مماني الاسومة الرؤومة ، فهو يقول
"شمر الشابي صادر عن نفس محرومة ، فلا يتنفس فيه الا الشوق والحنين
الى تلك التي تنقذه من جهامة أيامه ، ورتابتها المله ، ولذلك
اجدني من القائلين بأنه كان يتفنى بالمرأه كمثل أعلى ، لا امرأة
ممينة" (١)

والباحث يرى ان ابا القاسم قد يكون أحب فتاة بممنها ، وهام
بها حبا ، ومرجعي في ذلك ديوان ابي القاسم نفسه ، الذي ضم
العديد من القصائد الفزلية التي عبرت عن لحظات سعادة عاشها
الشاعر مع حبيبته ، ولحظات يؤس خلفها موتها .

فهو يخاطبها قائلا :

أنت ما أنت ؟ أنت رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود
فبك ما فيه عن فصوص ومعق وجمال مقدس معبود
أنت روح الربيع تختال في الدنيا ، فتبهتر رائعات السورود
كلما ابصرتك عيناى تمشين بخطو موقّع كالنشيد
خلق القلب للحياة ، ورف الزهر في حقل عرى المجرود

ثم يخاطب الحب ويعتبره أكثر من أقض مضجعه ، وأدوى جسده
وأسقم بدنه :

(١) محمد خلفه التليسي ، الشابي وجبران ، ص ١١٧ .

أهبا الحب أنت سر بلاني وهمومي وروعتي وعنائني
ونحولي وادمعي وعذابي وسقامي ولوعتي وشقائني

وقد يقول البعض ان مثل هذه النماذج الشعرية ، لا تقيم الدليل على ان الشابي أحب امرأة بعينها ، فلم يهتف باسم عند أو نصم ، كما عتف بها شعراء العرب من قبل ، وقد يكون في ذلك دليلا على انه يخاطب المرأة كجنس . ولكن نستمع اليه يقول اثر وفاة حبيبته

... ولا يعقل ان تموت المرأة كجنس .

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الباسمه
واليم قد أمست كعساق الكهوف الواجمه
قد كان لي ما بين أحلامي الجملة جدول
يجرى به ماء المحبة طاهرا يتسلسل
هو جدول قد فجرت ينبوعه في سهجتي
أجفان فاتنة أرتبها الحياة لشقوتي
أجفان فاتنة قراءت لي على فجر الشباب
كمروسة من غايات الشمر في شفق الحباب
ثم اختفت خلف السماء ، وراء هاتيك الفهم
حيث المذارى الخالدات يسن ما بين النجم
ثم اختفت أواه ، طائفة بأجناح المنون
نحو السماء ، وهما أنا في الأرض تمثل الشجون

ومهما يكن من أمر ، أكان الشابي أحب المرأة كجنس ، أو أحب امرأة بعينها ، فان ديوانه يحتوى على قصائد غزلية جميلة عذبة .

لمل أشهرها قصيدة - صلوات في همكل الحب - التي حازت إعجاب
كل دارسي شعرا أبي القاسم ، وهو يرى أن الدكتور أحمد زكي أبوشادي
حين انتهى من قراءة هذه القصيدة ، وكان الشابي قد أرسلها لتشر
في أعداد مجلة " أوصلو " صااح " هذا هو الشعر الذي نشدناه ،
ونشده من قبلنا ، فضلوا الطريق وظللناه ، حتى ظفربه الشابي
وحده من دوننا ، وكان أبوشادي يرقص طربا ، ويهتر جهورا وهو
ينشدها . " (١)

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسما الضحك كالليلة القمر كالورد كالبسم الوليد
بالحل من وداعة وجمال وشباب منغمس اميلود
وبعد ان يصفها بالطهارة والوداعة ، يقول :

فتأملت في الوجود كلحن عبرى الخيال حللوا النشيد
خطوات سكرانة بالاناشيد وصوت كرجع ناي بميلد
قوام يكاد ينطق بالالحن في وقفة وقممود
كل شيء موقع فيك حتى لفتة الجيد ، واهتزاز النهود
فجبهته نغم ، ولحيته
ثم يخاطبها

انت . . . انت الحياة في رقة الفجر في روض الربيع الوليد
انت . . . انت الحياة كل أوان في رواء من الشباب جديد
انت . . . انت الحياة فيك وفي همك آيات سحرها الممدود
انت دنيا من الاناشيد والاحلام والسحر والخيال المديد

(١) طه عبد القادر سرور ، أبو القاسم الشابي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٠٥ .
١٤٦ / ٠٠٠

انت فوق الخيال والشعر والفن ، وفوق النهى وفوق الحدود
انت قدسي وممدى وصباحي ، ورمحي ونشوتي وخلودي (١)

فهني كل شي * في عالم الشاعر ، هي حياته العذبة الجميلة
الصادقة ، لقد ارتفع بها الى عالم من المثل والاحلام ، فهني ليست
من عالم الناس ، ثم يقسول :

يا ابنة النور انني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود
قد عيني اعش في ظلك المذب وفي قرب حناك المشهود
عيشة الجمال والفن والالهام والطهر والسنى والسجود

وحين عرض الدكتور عبد القادر القط لهذه القصيدة ، قرر أن
الشابي شاعر رومانتيكي ، وشعره يمثل كل خصائص الرومانسية ، ففيه
حدة الماطفه والمبالغة والانفعال ، والانطلاق في التعبير من الاحساس
الى ابعاد غاية ، ولعلّ أوضح مثال لهذه النزعة قصيدته " صلوات في
هيكيل الحب " بضرعتها التي يحمل العنوان شيئاً كثيراً منها " (٢)

ومن جميل غزله الملي * بالصور الفنية التي تتوالى الواحدة بعد
الاخرى في خصوصية عجيبة ، تمثل صيد ابي القاسم الفني ، الذي لم يتح
له الزمان ان يفيض بأناء ، وانما تدفق سيالا لا يجيش بالحياة وكأنما
الشاعر كان يسابق الزمن فحشد كل ذخيره فيما استطاع ان ينظمه
في حياته القصيرة *

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) د . عبد القادر القط ، مجلة الاديب اللبنانية ، س ١٢ ، ج ٣ (مارس ١٩٥٣)

وهنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
معبدا للجمال والحب شمرا ، شهدا على فجاج السنين
معبدا ساحرا ، مباخره الزهر ، على الصخر ، والثرى والفصون
كل زهر يصوع منه اريج من بخور الربيع ، جم الفتنون
ونجم السماء فيه شموع أوقدتها للحب روح القسرون

وهذه المشاهد الجميلة التي يراها في عيني حبيبته :

أى دنيا محورة ، أى رؤيا	طالعتني في ضوء هذى الميون
زمر من ملائكة الملا الأعلى	يفنسون في حنو حنسون
وصبايا رواقص يتراشقن	بزهرة التفاح والياسمين
في فضاء مودد عالم ساه	أطافت به عذارى الفتنون (١)

هذا الحب الذى عاشه الشابي هو حب رومانسي ، انه حسب
لذات الحب ، لا شيء آخر ، ومن الرومانسيين من لا يحسب الا لهدم
بالحب قلبه ، يستعذبا في سبيله المذاب يقول موسيه " اى الهسه
الشمر ، ما يهمني من موت أو حياة ؟ انني احب وأريد ان يشحب لوني
أحب وأريد المذاب ، أحب وأهب عبقريتي جزاء قلبه ، أحب وأريد ان
احس على خدي فيض نبع من الدموع لا يفيض " (٢)

وطبيعي ان تحتل المرأة في ذلك الادب مكانا رفيعا ، لم تظفر
بمثله من قبل ، فقد ادى السمو بالمواطن ، والصدق فيها ، الس نوع
من تهديس المرأة ، والاشادة بها ، والخضوع لسلطانها ، ولم يكن

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص ١٤٧ . ١٤٨ / ٠٠٠

خضوعهم آية خنوع وضعف ، بل كان مصدره صدق الماطفه .

واكد حقيقة رومانسية الحب عند الشاعر - الدكتور احسان عباس -
حين عرض لقصيدة الشابي - ايتهال الحالعه بين المواصف - وفيها يقول :

انت كالزهرة الجميلة في الفاب	ولكن ما بين شوك ودود
والرياحين تحسب الحسك الشرير	والدود من صنوف السورود
فانهي الناس ٠٠ انما الناس خلق	مفسد في الوجود غير رشيد
والسميد السعيد من عاشق الليل	فربما في اهل هذا الوجود
ودعهم يحيون في ظلمة الاشم	ومعشي في طهرك المحمود
كالملك البرى ، كالوردة البيضاء	كالموج في الخضم البعيد
كاغاني الطيور ، كالشقق الساحر	كالكوكب البعيد السعيد
كتلوج الجبال ، يفمرها النور	وتسمو على غبار الصعيد
انت تحت السماء روح جميل	صافه الله من غير الورود
وبنو الارض كالقنود ، وما اضيع	عطر السورود بين القنود
انت من رهشة الاله ، فلا تلقي	بفن السما لجهل العبيد
انت لم تخلق ليقرئك الناس	ولكن لتعبدى من بعيد (١)

ويرى الدكتور احسان عباس ، ان هذا الشعر مدائي ، وأن
رومانطيقية الشاعر سلبه لا نرى في الناس الا الشوك والدود والفساد (٢)

وتظهر رومانسية الشاعر واضحة في البيت الاخير من القصيدة :

(١) ابو القاسم الشابي ، افاني الحياة ، ص ١٥٥ .

(٢) د . احسان عباس ، فن الشعر ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ ، الطبعة
الثالثة ، ص ٢٤٧ .

انت لم تخلفي ليقربك الناس ولكن لتعبدى من بعيد

فهو لا ينشد الحب بغية ملذات الحس ، ومتع الجسد ، وهو في هذا يتفق مع فكتور هوجو زعيم الرومانسية حين يقول مخاطباً حبيبته " اني احبك حبا صادقا ، وأأسفاه اني احلم بك حلم الاعمى بالضوء ، سيدتي اصغ اليّ : عندي احلام لا عداد لها ، احبك من قريب ومن بعيد ، وفي جوف الظلام ، ولا أجرؤ على لمس طرف اصبعك . " (١)

ولكن هل احب الشاعر حبا رومانتيكيا فحسب ، الا يوجد في شعره ما يصور متعة جسدية ؟ لقد اجبت على هذا السؤال حين عرضت لرأى الشاعر " في المرأة في الادب العربي "

ومهد فالقاري لديوان الشابي ، يلاحظ ان جانب رومانسيته المحببه وصورته الفنية المعبرة ، وجمال الموسيقى ، يلاحظ وحيدة القصيدة المضوية وسهولة اللفظ . . .

* * *

(١) محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، ص ١٤٦ .

لعلّ أنهم ما يواجه الباحث حين يتعمّرون دراسة الشاعري ،
 نحو المموض في كثير من المواقف ، ولكنه هذا المموض
 سرعان ما ينجلي أمام الوقفه المتأمله العميقة ، ومن جوانب هذا
 المموض ، قصائد كثيرة تنف بها الشاعر للحياة ، وفلّى لها ،
 وشغف بمتعتها ، وقصائد أخرى استعجل فيها الصوت ، وكناه
 بالصباح ، الذي يشرق فيزيل دجى الليل ، ويبدد حلكته ، فالصوت
 عنده اشراقه تبديد ظلمات الحياة ، فالحياة اذن مظلمة مكفهسة
 قاسية ، ومثل هذه القصائد تشير السؤال التالي : هل كان ابو
 القاسم عاشقا للحياة ، أم كان مبغضا لها ؟ ووصلت الى نتيجة
 أن عشق الحياة هو مبدأ أبي القاسم ، وان كان قد استعجل
 الصوت ، انما استعجلته اليه محن شديدة عانها : الصوت الذي
 ألم بكل حبيب لديمه ، المرض الذي كمن في قلبه ، الشعب الذي
 وقف ضده وحاربه . وقادته الى هذا الموقف ايضا رومانسيته
 التي وفدت اليه من روافد عده .

ثم هناك مموض آخر جلل أبا القاسم ، هو موقفه من
 شعبه ، فهناك القصائد التي عبّرت عن حبه لشعبه ، وشغفه به ،
 تمثلت في العديد منها دعوة صارخة انبعثت من نفس حسّاسه
 صادقه ترجو الخير له ، ثم تلك الصرخات التي وجهها في
 قصائد كثيرة منذرا المستعمرين مهددا اياهم بشورة هذا الشعب
 ومع ذلك فأنت واجد في ديوانه الكثير من القصائد التي
 يضطغن فيها الشاعر على هذا الشعب ، ويتمنى لو يكون اعصارا
 عدوا يودي به ، وفأسا يجتث بها جذوره ، وقصائد أخرى

يتهم فيها شعبه بالجنون ، وانهم ليسوا أهلا للحياة . هذه
القضايا تضع الباحث أمام استفهام ملح ، الى اين ذهب أبو
القاسم في علاقته مع شعبه ؟ هل هو من محبيه أم هل هو
مبغضيه ؟ رأيت ان الشاعر هو مع الشعب واليه ، وأن
نقته على شعبه نبعت من حرصه عليه ، حرص ان يكون قويا
شجاعا رافضا الظلم بعدا عن العجز ، وأبى الشعب الا ان يستكين
ويخضع ، ولكن الشابي فيما أرى جانبه التوفيق حين سدد سهامه
الى شعبه ، لأن الثورة لا يفجرها ظلم وقع ، وحيف حصل ، انما
يفجرها وعي ونضج ، وهذه مسئولية الفئة الواعية النابهة فسي
المجتمع ، وأنا لا يمكن ان نكلف نفسا الا وسعها . وقضية الشاعر
عاطفية ، لا تبررها الا رومانسيته التي شربت من المجتمع وأوت الى
الغاب تناجيه وتحاوره ، وأبعدت عن الشعب تعلمه . وقد يكمن
سبب آخر ، هو اعتلال صحته ، الذي أثر على سكون اعصابه
فجعله ضيقا برما ، لا يستطيع المحاوره والاقناع .

وأخطر ما يواجهه الباحث في ادب الشابي هو موقفه من
القديم الذي تبدى في كتابه " الخيال الشعري عند العرب " .
والذي اتهم فيه خيال العرب بالضحالة والقصور عن الابداع ،
واتهم الفكر العربي بالمادية والسطحية . ورأى أن ادب العربي
القديم وان كان كنزا نرجع اليه كلما دعت الحاجة ، الا أن اعجابنا
به يجب ان لا ينقلب الى تقديس ثم جمود . ويرى ان الادب
العربي قديما عبّر عن حياتهم أحسن تعبير . ونحن في حاجة
لادب يصبر عن ذواتنا وقضايانا المعاصرة . وما يؤخذ على الشابي
في هذا المجال هو نبرته الخطابية الصالية التي اتسم فيها

اسلوبه حين عرض لهذا الموضوع . ووقفت في بحثي وقفه طويلا عند هذه المشكلة وناقشتها ، وأحب أن أضيف أن رغبة الشابي الملححة في التجديد ، وقصر عمره الذي لم يتح له المزيد من رسوخ القدم في دراسة الادب العربي القديم ، هي التي عصفت به ليقف هذا الموقف ، ولكن هذا لا يعني ان كتابه خلا من كثير من القضايا الجديرة بالدراسة والاهتمام . ولعل أهمها ضرورة ان يكون لنا أدب معاصر يعبر عن ذواتنا ويغوص في اعماق واقعنا ، يبين العيوب ، لينقد ويوجه .

ثم موقفه من المرأة ، حين خلع عليها رداء ملائكيها وسما بها الى عالم من المثل والاحلام ، وان كما مع الشابي ، نقر أن المرأة نصف المجتمع ، وهي أمه التي فذته بلباسيها ، وأفرقت عليه من حنانها ، الا اننا نرى ان المرأة انسان ، لها حسناتها ولها عيوبها .

تم بحمد الله

* * *

المراجع

- ابراهيم الساموكي ، نصوص ودراسات عربية وافريقية في اللغة والتاريخ والادب ، وزارة الاعلام ، مديرية الثقافة العامة العراقية سلسلة الكتب الحديثة ، دون تاريخ .
- احسان عباس ، فن الشعر ، نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٩ .
- ابو القاسم الشابي ، اغاني الحياة ، القاهرة ، دار الكتب الشرقية الطبعة الاولى ، ١٩٥٥ .
- ابو القاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، الشركة القومية للنشر والتوزيع ، تونس ١٩٦١ .
- ابو القاسم الشابي ، الادب العربي في العصر الحاضر ، مقدمة ديوان الينبوع ، احمد زكي ابو شادي ، الطبعة الاولى ١٩٣٤ .
- ابو القاسم محمد بدري ، الشاعران المشابهان ، الشابي والتيجاني دار المعارف بصر ، ١٩٥٩ .
- ابو القاسم محمد كرو ، الشابي حياته وشعره ، منشورات دار مكتبة الحياة ، الطبعة الثانية ١٩٦٠ .
- ابو القاسم محمد كرو ، آثار الشابي وصداه في الشرق ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦١ .
- ابو القاسم محمد كرو ، دراسات عن الشابي ، دار المغرب العربي تونس ، دون تاريخ .
- خليفه محمد التليسي ، الشابي وجبران ، دار الثقافة بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٧ .

- خير الدين الزركلي ، الاعلام ، ج ٦ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- درويش الجندى ، الرمزية في الادب العربي ، مكتبة النهضة المصرية
بالفجالة ، ١٩٥٨ .
- رجاء النقاش ، ابو القاسم الشابي ، شاعر الحب والثورة ، دار
القلم بيروت ، لبنان ، الطبعة الاولى ١٩٧١ .
- زين العابدين السنوسي ، ابو القاسم حياته ، ادبه ، تونس ١٩٥٦ .
- سليمان ربيع ، محاضرات القاها على طلبة السنة الاولى للماجستير
في جامعة الازهر ، للعام الدراسي ١٩٧٢/١٩٧٣ .
- شوقي الجمل ، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، مكتبة الانجلو
المصرية ، ١٩٧١ .
- شوقي ضيف ، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ،
الطبعة الثالثة ، دون تاريخ .
- شوقي ضيف ، الرثاء ، سلسلة فنون الادب العربي ، الفن الغنائي -
دار المعارف ١٩٥٥ .
- طه عبد الباقي سرور ، ابو القاسم الشابي ، القاهرة ١٩٥٨ .
- عبد الحميد مسعود الجزائري ، المغرب العربي وكفاحه ، القاهرة
دار الجامعة للطبع والنشر ، دون تاريخ .
- عبد اللطيف شرارة ، الشابي ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٧٣ .
- عمر فروخ ، شاعران معاصران ، ابراهيم طوقان ، ابو القاسم الشابي ،
بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٤ .
- محمد الحليوى ، مع الشابي ، سلسلة "كتاب البحث" تونس ١٩٥٥ .

الفهرس

صفحة

٥	المقدمة
٧ - ١١١	الباب الاول
٨ - ٢٠	<u>الفصل الاول : بيثة ابي القاسم الصام</u>
	تونس تحت وطأة الاحتلال الفرنسي
٨	(١) قصة الاحتلال
١١	(٢) مبرر الاحتلال
١٣	(٣) تونس بين انياب الذئاب
١٥	(٤) اعتداء فرنسا على السلطة القضائية التونسية
١٦	(٥) فرنسا تعمل على نحو الروح القومية ومحاربة اللغة العربية
١٨	(٦) فرنسا تهمل الناحية الصحية في القطر التونسي
٢١ - ٣٩	<u>الفصل الثاني : بيثة ابي القاسم الخاصة</u>
٢١	(١) مولده ونشأته
٢٢	(٢) هافته
٢٣	(٣) ابو القاسم الشابي كان يجهل اللغات الاجنبية
٢٤	(٤) كان ابو القاسم محبا للمطالعة
٢٥	(٥) مراحل حياته الثقافية
٢٦	(٦) ترعنه الحركة الطلابية المناهضة بالاصلاح
٢٦	(٧) حبسه
٢٧	(٨) زواجه
٢٨	(٩) وفاة والده وما سببته له من احزان
٣٥	(١٠) الشابي يرفض العمل بالوظائف الحكومية
٣٦	(١١) مرضه ووفاته

- محمد عبد المنعم خفاجي ، دراسات في الادب المصري الحديث ومدارسه ، الحلقة الاولى ، دار الطباعة المحمدية بالازهر ، القاهرة دون تاريخ .
- محمد غنيمي هلال ، الرومانتيكية ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، دون تاريخ .
- نازك الملائكة ، تضاييا الشعر المعاصر ، منشورات مكتبة النهضة ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٦٧ .
- نعمات احمد فتود ، شعب وشاعر ، ابو القاسم الشابي ، مؤسسة الخانجي بصر ، ١٩٥٨ .
- يوسف اسعد رافير ، مصادر الدراسة الادبية ، بيروت ، ج ٢ ، ١٩٥٥ .

الدوريات

- عبد القادر القط ، مجلة الاديب اللبنانية ، س ١٢ ، ج ٣ ، مارس ١٩٥٣ .